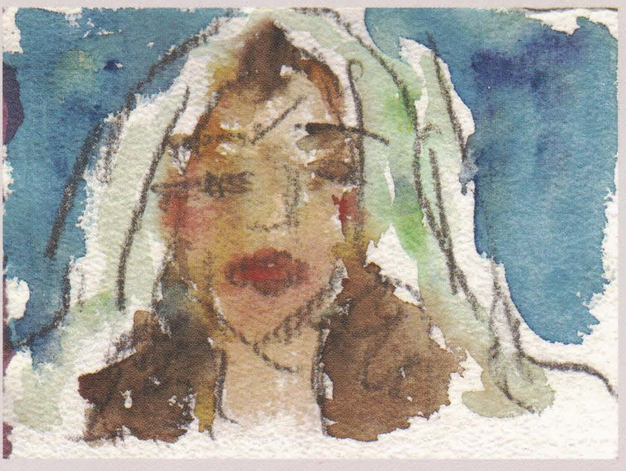


عبد الرحمن منيف

البَابُ المفتوح

قصص

كتبت هذه القصص بين عامي 1969 - 1970 والتي كانت مرحلة تجريبية في حياة الكاتب عبد الرحمن منيف وامتحان أولي لممارسة الكتابة. حتى أن معظمها كتب قبل أي عمل روائي، في وقت كان مغرماً بقراءة القصة القصيرة .

كانت هذه القصص تعيش في عقله ووجدانه، وقد تعود بذورها لحوادث رآها بنفسه ولأشخاص عرفهم وعايشهم وتركت لديه ذلك الخدش الموجع.

أجّل نشرها مراراً للعودة إليها لتكون بشكل يرضى عنه أكثر، لكن لم يجر عليها أي تعديلات أساسية لقناعته أنه إذا بدأ فستتغير نهائياً ولحرصه أن تترك كما جاءت في الكتابة الأولى، وضمن ظروفها.

لقد قسم القصص إلى مجموعتين ورتب تسلسل القصص في كل مجموعة ووضع عنواناً للمجموعة الأولى «أسماء مستعارة» و«الباب المفتوح» للمجموعة الثانية . والذي لم يتحقق هو نيته بأن يحضّر مقدمة مناسبة لتلك المجموعات بعد تصحيحات بسيطة ولكن لم تكتمل هذه الرغبة.

سعاد منيف

عبد الرحمن منيف

الباب المفتوح

* الباب المفتوح (قصص قصيرة)
* تأليف: عبد الرحمٰن منيف
* **الطبعة الثانية، 2009**

ISBN: 9953-68-146-5

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم
ص.ب: 5460/ 11، العنوان البرقي: موكيالي
تلفاكس: 751438/ 752308
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص.ب: 9157
هاتف: 5605432، فاكس: 5685501
E-mail: mkayyali@nets.com.jo

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية ـ الدار البيضاء:
(الأحباس) ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339
فاكس: 2305726
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma

لبنان ـ بيروت:
الحمراء ـ ص.ب: 5158/ 113
هاتف: (01)352826
فاكس: (01)343701
E-mail: cca_casa_bey@yahoo.com

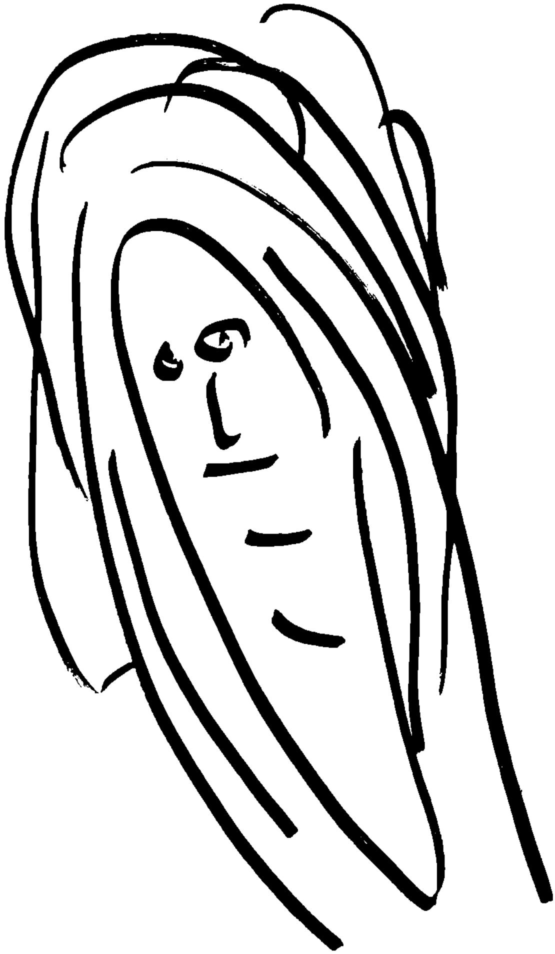
عبد الرحمن منيف

الباب المفتوح

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

الأيام الأخيرة... من آب



. . كانت في السور، جهة الشرق، فتحة مغطاة بالأغصان الجافة، وكانت لصغرها ونتوء حجارتها لا تتيح الدخول إلا للأولاد الصغار والكلاب، أما القطط فقد تعودت بمكر أن تقفز من مكان لآخر حتى تصبح فوق السور تماماً، وهناك تجلس تراقب الأولاد يتسللون إلى داخل الحديقة.

كان الوقت صيفاً. . . الأيام الأخيرة من آب، وإذا كنا، حتى ذلك الوقت، قد تعلّمنا أسماء الشهور، فإن سبب تذكّر الأيام الأخيرة من آب، لا يعود الى المدرسة، فقد كانت الشهور بالنسبة لنا حالة صماء لا تعني شيئاً محدداً، وحتى «الأول من تشرين الأول» الذي تعبنا ونحن نردده وراء المعلم لم يكن يعني أكثر من بداية العذاب. . . فقد ضربنا مرات كثيرة، وأصابعنا الصغيرة تقفز مثل جرادات عمياء فوق الحروف دون أن نميزها. . .

أما الأيام الأخيرة من آب، فقد كانت شيئاً آخر. . . كانت بداية العناق الملتهب مع الزمن الملتوي الممدود مثل طريق لا ينتهي.

أما كيف بدأت المشكلة، فإن التردد انتهى فجأة، نحيّنا الأغصان الجافة، ثم سمعت صوت ارتطام جسد راتب وهو يقفز على الأرض. ترددت، شعرت بقلبي يتحول إلى عصفور يطير في صدري، لكن في ثانية قذفت بنفسي بعد أن سمعت ورائي، في الشارع، صوتاً يقترب.

الحديقة واسعة خضراء لدرجة الجنون، لكن عيوننا لم تستطع أن تستوعب غير شجرة الخوخ. كان الخوخ مثل التراب، كثير.. كثير. أخضر بلون الحشيش الذابل، أصفر بلون الليمون، كبير بحجم قبضة اليد... لم أر واحدة صغيرة.

تسلّق راتب الشجرة بخفة قرد... قال لي بالإشارة أن أقف تحت الشجرة. وقفت، لكن كل شيء فيّ ينتفض. الصمت مثل خيمة سوداء يظلل الأشجار والسماء، ولا أسمع إلا انقصاف الثمار ودبيبها العذب على اللأرض، ومع كل ثمرة أصرخ:

- راتب إنزل... إنزل، يكفي.

وراتب لا يسمع. آه لو أنه سمع... هل كان بعيداً؟ هل كان خائفاً مثلي؟ لو أنه سمع لما تذكرت تلك الأيام اللعينة من آب!

من أين انفجر سيف؟ هل كان مختبئاً يترصدنا؟ هل سمع أصواتنا وتقدم نحونا دون أن نحس به؟ أمسك بي من الخلف بقوة حصان. كانت على شفتيه ابتسامة صغيرة جعلتني أرفع

يدي وأضعها فوق أذني. . . أما راتب فقد سقط في حضنه دون أن يقول له شيئاً. . سقط مثل خيط من الماء.

سرنا أمامه دون كلمة. كان يمسك قمصاننا من الخلف ويقودنا كأنه يقود الخراف. الصمت قاسٍ، الشمس شلال من الجفاف يجعل ألسنتنا مثل اللحم المقدد، وسيف يديرنا، يدفعنا، تنغرز قبضته في ظهورنا وهو يحاول أن يحكم مَسْكَنا.

الدار الكبيرة تغرق في صمت الظهيرة، بعيدة في أقصى الغرب من الحديقة. لماذا يرجع كل الأولاد وتحت قمصانهم حبات الخوخ كأنها الدمامل الكبيرة ولا نفعل نحن. .؟ كانوا يخرجونها بزهو، يفركونها حتى تشع بلمعة تشبه الضوء، ويأكلونها على مهل، وأنا الذي رأيت راتب وانزلقت وراءه، تحولت إلى دب أعمى. . لماذا انطفأت عيني فلم أر سيف؟ ماذا أقول للمستر ستيوارت؟ كنت أحييه كل صباح. كنت أتملقه لكي أنزلق إلى الحديقة وأسرق مثل باقي الأولاد. . والآن! هل سيعرف أبي؟ ومدير المدرسة!

تلك الأيام من آب، بعد الظهيرة، الصمت واللسان الجاف، وأرى قدم راتب تتعثر، ثم يسقط، ويسقط فوقه سيف. لايمكن لراتب أن يهرب، لماذا لم أقبّل يد سيف، لو قبّلت يده هل كان سيتركني؟ لماذا لم أفعل؟

بصوت مبحوح، قبل أن نصل باب المنخل المغلق، صرخ سيف:

- مستر ستيوارت. . . مستر ستيوارت.

انتظر ليترك صدى صوته يستقر داخل الدار، وأحكم قبضته ثم نادى:

- الحرامية... الحرامية يا مستر ستيوارت.

من وراء الباب المغلق تخايل أمامنا شبح، تحرك بسرعة، ثم انفتح الباب.

المستر ستيوارت... كان صدره عارياً، ويلبس بنطالاً قصيراً؛ لم يكن مستر ستيوارت الذي نحييه في الطريق، كان كرشه الأحمر الكبير يشبه بطن خروف معلق للسلخ، أما يداه فقد علاهما الشعر حتى الرقبة، وابتساماته تظهر وتغيب كل لحظة. أشار إلى سيف أن يقترب، أمسك بأذني بقوة وتكلم ينادي زوجته. لما وصلت كانت تحزم نفسها بثوب الحمام. نظرت إلينا وشهقت. تحدثت معه وعيناها كبيرتان تدوران مثل بندول الساعة. قالت لسيف:

- قبل تلاتا يوم أنا شفت هادي تمش عند باب. وأشارت إلى الباب الخارجي، وهي تقلب شفتيها وتهز رأسها باستغراب ودهشة.

وعادت تتحدث من جديد مع زوجها، هز رأسه عدة مرات دلالة الموافقة، التفت إلى سيف وقال:

- إنت تربط هرامية كويس، أنا، وأشار إلى نفسه أكثر من مرة وهو يدق على صدره بإصبعه، أنا بتقول للشرطة مسكنا هرامية.

غابت زوجة المستر ستيوارت بعد أن هزت رأسها بقوة، وقالت كلمات لم نفهمها، أما هو فقد تراجع عن الباب خطوة، وظل بموازاة الحائط فاسحاً المجال لسيف أن يدخلنا.

كان البيت معتماً، له رائحة غير مألوفة، وما كدنا نقف في الدهليز حتى أغلق المستر ستيوارت الباب، وقال لسيف:

- مدام شافت قبل تلاتا يوم... وأشار إليّ وهزّ إصبعه يهددني.

كان قلبي يرتجف. أما راتب فقد انخدشت شفته السفلى عندما سقط، وسال الدم.

قال المستر ستيوارت، وهو يجر راتب من أذنه:

- إنت إسمك إيه؟

وبصوت لم يلتقطه المستر ستيوارت، وردده بعده سيف ليوضحه:

- راتب، راتب.

- إنت زغيّر وهرامية؟

ولم يُجب، نظر إليّ وقال:

- وإنتِ إسمك إيه؟

- مأمون.

- مأمون؟ إنتِ مش إسمك مأمون إنت إسمك هرامية.

قلت أدافع عن نفسي، وقد تظاهرت بالبكاء:

- مستر. . . مستر أول مرة.

- إنت هرامية كبير. شرطة بعد خمسا دقيقا تيجي هون.

جاءت زوجة المستر ستيوارت بحبل طويل، ورمته أمام سيف وهي تقول:

- لازم تربت[*] كويس. . هرامية يمكن تهرب.

وبنشاط وحيوية فذة ربطنا معاً. حزمونا وظهورنا إلى بعض، ووصل الحبل إلى مكان قريب من الركب، وكأنه لا يريد أن ينتهي، وسيف متردد هل يواصل لفّ الحبل حولنا أم يكتفي. قال له المستر ستيوارت:

- سيف. . . خلاص، هي ما بتهرب، وأشار إلى قبضة باب جانبي وأضاف: سوي هون، وأنا دكيكة تقول للشرطة تعال.

غاب المستر ستيوارت وزوجته، وسيف ينظر إلينا وابتسامته لا تفارق وجهه، سأل راتب:

- من هو أبوك؟

- عبد الرؤوف.

- عبد الرؤوف؟

- عبد الرؤوف قطان.

- بيتكم قريب من الفرن؟ البيت الأزرق؟

(*) تربط.

وهز راتب رأسه، التفت إليّ وسألني:

- وأنت!

قلت وأنا أتظاهر بالبكاء لعل سيف يتركني:

- والله ياعمي أول مرة نزلت للبستان.

- أول مرة..؟ وضحك ثم سأل من جديد.

- وأنت ما اسم عائلتك؟

- الزاوي.

- الزاوي؟ وأين بيتكم؟

- بعد هذا الشارع، قرب المستشفى!

جاء المستر ستيوارت وزوجته. كانا يتحدثان، فلمّا اقتربا أشارت إليّ وهي تقول:

- إنتِ كيف دخلتِ بيت؟ مين كانت معك؟ هادي؟ وأشارت إلى راتب.

ولم أفهم ولم أجب. تابعت بغضب:

- إنتِ ما بدك تحكي... ها؟ بسيته(*)! شرته(**)! تأرف(***)! كيف لازم تكسر راس إنتِ تحكي.

تقدّم مني المستر ستيوارت، قال وهو يقرصني من خدي:

(*) بسيطة.

(**) شرطة.

(***) تعرف.

- إنتِ ترجّع دهب، أنا بتقول للشرطة مافيش حاجة، خلاص.

لم أعرف عن أي شيء يتحدث. كنت أريد أن أبكي، أن أقبّل يد المستر ستيوارت ويد زوجته. كنت في تلك اللحظة مستعداً لكل شيء.

دخل قائد المخفر ومعه شرطيان، حيّا القائد المستر ستيوارت تحية عسكرية صارمة. وما كاد ينظر إلينا موثقين بالحبال حتى علت وجهه ابتسامة كبيرة ظافرة. سأل المستر ستيوارت:

- سيدي... نحن جاهزون... ماذا تأمر؟

- ساعة تنين ونس(*)، سمعت سيف بتنادي هرامية... هرامية، لما أنا فتحت باب شفت هدون اتنين، يمكن هم أخذوا دهب قبل تنين يوم.

وقبل أن ينتهي المستر ستيوارت قالت زوجته وهي تشير إليّ:

- قبل تلاتا يوم أنا شفت هادي عند بيت. كانت بتمشي وتتطلع هون... هون. وبعد لحظة صمت أضافت بلهجة واثقة: هوّ هرامي، وشّه(**) بتقول أخذ دهب.

وهز قائد المخفر رأسه وقد فهم الأمر كله، قال لسيف

(*) ونصف.

(**) وجهه.

وهو يقلب دفتراً سميكاً أسود بيده:

- أنت قبضت عليهم...؟

- نعم يا سيدي.

- هل كان معهم أحد آخر؟

- لا يا سيدي... كانوا وحيدين.

- أين قبضت عليهم؟

- في الحديقة قرب البيت.

ونظر إلينا قائد المخفر وهو يلفّ حولنا كأنه يقلب بضاعة، ويريد أن يتأكد منها، قال لي:

- الذهب؟ لمن أعطيته؟

- والله يا سيدي أول مرة.

- الذهب... أريد الذهب.

- والله يا سيدي لا أعرف.

وبعصبية ردّت زوجة المستر ستيوارت:

- إنتِ تأرف تسرأ(*) ما بتأرف دهب وديت فين؟

وتلقيت ضربة على وجهي، حتى هذه اللحظة لا أدري من أين أتت، ومن الذي ضربني، كان الجميع حولي... قائد المخفر والشرطيان... ثم المستر ستيوارت وسيف... لا يمكن أن تكون زوجة المستر ستيوارت هي التي ضربتني لأنها

(*) تعرف، تسرق.

بعيدة. . . وقبل أن أفيق من هول الضربة، سمعت قائد المخفر يقول:

- أحسن لك أن تعترف، إذا لم تعترف برضاك، بدون ضرب، سوف تعترف ورجلي فوق رأسك.

- سيدي، والله أول مرة نزلت إلى البستان.

قالت زوجة المستر ستيوارت:

- إنتِ تكذب كتير. . أنا قبل تلاتا يوم شفت إنتِ هون.

التفت قائد المخفر إلى راتب وسأله:

- عندما سرقتم الذهب، كنتم مع بعض؟

وبلهجة عنيدة متوترة، كانت البداية؛ في أن أفهم كل شيء. سمعت راتب يقول:

- أنا ما لي علاقة بالذهب. أنا سرقت خوخ، ولا أعرف أي شيء!

- ليس لك علاقة بالذهب؟ هل قال لك لمن أعطى الذهب؟

- لا أعرف شيئاً!

وصرخت زوجة المستر ستيوارت بحدّة:

كل هرامية سوا سوا، كل واهد بتقول ما بأرف، ما شفت، لازم تنين كانوا سوا. . . وغيرت لهجتها وسألت راتب:

- هبيبي، إنت أولّي(*) دهب فين، خلاص، تروح بيت.

ونظرت إليّ تريد أن تأكلني بعينها، خفضت بصري وقد امتلأ رأسي بدوي هائل... تصورت أن كل شيء قد انتهى، حتى لو خرجت من هنا فإن أبي سيقضي على ما تبقى منّي. أردت أن أبكي، أن أصرخ، أن أقبّل أيدي الجميع وأرجلهم... عن أي شيء يتحدثون؟ الذهب؟ أي ذهب...

سألني مستر ستيوارت:

- إنت في مدرسة؟

هززت رأسي دون أن أجيب، فلما فهم هزة الرأس، تابع:

- اللي تروه(**) مدرسة تحكي مش كزب.

وحاول قائد المخفر أن يقول شيئاً، لكن يد المستر ستيوارت أشارت إليه تريده أن يقف، قال:

- إنت هلو، مدرسة كويس، بكرة بيسير كبير، وبعدين بيسير ضابط، لكن لازم بيحكي مضبوط.

- أنتِ قولي دهب مين أعطيت؟ مين بعت، أنا بيروه(***) بياخذ، لا تخافي!

بعد الضرب جرّونا إلى المخفر. عندما خرجنا بصقت علينا زوجة المستر ستيوارت، وقالت بصوت حادٍ وبقرف:

(*) قل لي.

(**) تروح.

(***) بيروح.

- عرب كله وسخ، كله هرامية، كزّاب وأطبقت الباب بغضب، أما المستر ستيوارت فقد تحدّث مع قائد المخفر على انفراد؛

في المخفر ضُرِبْنا كثيراً، ضُرِبْنا أكثر مما نُضرب في المدرسة، وعند المساء جاء أبي وعم راتب وبعد أن تحدثا طويلاً لقائد المخفر، دخلا علينا. كانا غاضبين لدرجة أن صفعة أبي لما سقطت على وجهي لم أحس بها، أما صرخاته فكانت كأنها تأتي من عالم آخر.

ومنذ ذلك الوقت انحفر في ذاكرتي شيء اسمه الزمن.

سمعت قائد المخفر يقول لأبي:

- التوقيف ثلاثة أو أربعة أيام، حتى ينتهي شهر آب، وبعدها المحكمة.

هذه الأيام الأخيرة من آب... طويلة لا تنتهي، في كل يوم آلاف الأيام، وفي كل ساعة آلاف الساعات. ومنذ ذلك الوقت عرفت أي جنون هو الزمن، تحوّل الأكل في حلوقنا إلى نخالة، وأصابنا الإمساك، وشعرنا بالعالم يعادينا. كان أبي أكثر عداء من كل العالم، وكانت زوجة المستر ستيوارت بكلماتها الأخيرة أقسى من كل الصفعات. كانت تعتبر الخوخ على أشجار حديقتها ذهباً أكثر من الذهب... وإلا لماذا صارت الأمور بهذا الشكل؟

* * *

بعد يومين جاء المستر ستيوارت إلى المخفر، احتفى به قائد الشرطة لدرجة أن كل شيء في المخفر تغير في لحظة: صنعوا له قهوة وشاياً في نفس الوقت، وقفوا كلهم تاركين له وحده أن يجلس، وفي وقت متأخر جلس قائد المخفر، بعد أن عرض بإلحاح على المستر ستيوارت أن يدخن، وساد صمت؛

كنا نتابع المشهد، ارتفعت ساق المستر ستيوارت، وبدا مضطرباً، وبعد أن شرب القهوة، رأيناه يهمس ببعض الكلمات لقائد المخفر... وقائد المخفر يهز رأسه باستغراب... وبعد لحظات قال بصوت مسموع:

- أنا لازم بيشوف أولاد... لازم ما يزعل.

ونادوا علينا. كنت أرى وجهي في عيني راتب. كنا متعبين تؤلمنا أجسامنا من الضرب والأرض القاسية التي نمنا فوقها ليلتين. وما كاد يرانا المستر ستيوارت حتى ابتسم. كان يبدو مثلما نراه في الشارع: وجه مائل إلى الحمرة، عينان زرقاوان، وشارب أشقر طويل ورفيع، وكانت أسنانه البيضاء المتراصة، تجعل له هيئة صارمة، رغم ابتسامته. نظر إلينا طويلاً وهو يهز رأسه ويضحك. قال:

- إنت وإنت وأشار إلينا تماماً، لازم مدرسة كويس مش لازم شارع... دهب في بيت، ازا كان بدو تفاه(*) تعال أنا

(*) تُفاح.

بيعتي(*). . أما بتسرأ ايب(**). . هادي مرة خلاص. . . شرطة مافيش، بس لازم تكون مبسوط.

وقبل أن يخرج المستر ستيوارت، قال لقائد المخفر إنه لا حاجة لأولياء أمورنا، كل ما يريده أن نذهب إلى بيته، لكي ترانا زوجته.

* * *

ذهبنا مع شرطي. . . لم تكن يد الشرطي تمسك بأيدينا مثل أول مرة. كنا نمشي بحرية، ولكن بصمت، وما كاد الشرطي يدق باب المستر ستيوارت حتى أطل وجه سيف، ثم وجه زوجة المستر ستيوارت. . . كانت تلبس ثوباً أحمر. . . وتضع على رقبتها طوقاً حباته كبيرة تشبه الخوخ، لما رأتنا رفعت يديها إلى أمام كأنها تريد أن تحتضننا، وابتسامتها كبيرة فرحة تملأ وجهها. كانت خطواتنا صغيرة لا تكاد ترتفع عن الأرض. الشمس في بداية النهار رائقة لذيذة، الأشجار خضراء، وفي الركن قريباً من أحد الشبابيك طاولة بيضاء عليها صحن كبير من الفاكهة. . . وحلويات.

لم تقل زوجة المستر ستيوارت شيئاً، رغم أنها لم تكفّ عن الحركة لحظة واحدة، كانت تدور وتريد أن تفعل شيئاً، لكن دون جدوى، وعندما قال الشرطي:

(*) بيعطي.

(**) لا تسرق، عيب.

- هل تسمحين أن نذهب، يا سيدتي.

نظرت إليه ببلاهة، قفزت إلى الطاولة، وأحضرت صندوقين صغيرين، ثم قالت بتلعثم:

- خلاص... دهب في بيت... أنا شفت دهب... بس أنا... ولم تعرف أي شيء تريد أن تضيف... قدمت إلينا الصندوقين... أخذناهما بعد تردد. وكانت آخر كلماتها ونحن نخرج:

- أهسن... إلعب بعيد... بعيد خالص، أنا ما بيحب شرطة أبداً.

ما كاد الشرطي يستدير ويبتعد، حتى رفعت الصندوق فوق رأسي وهويت به على الأرض... وبحقد، وبكل ما أملك من قوة بدأت أدوس على الخوخ والكعك الذي اختلط بالتراب... ولم ينتظر راتب... فعل مثلما فعلت، وبصقنا على كل شيء، وسرنا.

* * *

في البيت ضربني أبي كثيراً. أما أمي فقد ألحّت عليه أن يطلب شرفية، قال لها وهو يتميز غيظاً:

- السرقة سرقة ذهب أو خوخ... وإبنك كان يسرق.

- ولكنه لم يسرق ذهباً كما ادّعوا.

- بداية السرقة بيضة!

ومنذ ذلك الوقت تعلمت أشياء كثيرة، لكن أكثر ما تعلمته: كلمات زوجة المستر ستيوارت عندما قادنا قائد الشرطة إلى المخفر، ومعنى الأيام والساعات، خاصة الأيام الأخيرة من شهر آب اللعين!

نهاية



. . ضرب أبي ركبته بقوة وهو ينهض. وقال بلهجة لم ترق لأمي:

- ألم يجد غير هذا الوقت ليموت؟

ردّت أمي بحزن:

- بدل أن تقول الله يرحمه!

- إذا قلت الله يرحمه هل يرجع؟

قالت أمي:

- لقد مات. ولن يرجع إذا ترحمت عليه أو لم تترحم.

- إذا كان لا فائدة فِلمَ أترحم.

- أنسيت فضله بسرعة؟

- ولماذا أترحم إذا كان عليّ أن أذهب لجلب الماء؟

ومضى أبي دون أن يلتفت، بعد أن حمل صفيحتين. كانت كلماته الغامضة تسبقه في المنحدر، كانت شتائم على الأغلب يوجهها للتركماني وللذي أخذه بهذا الشكل، دون إنذار وفي وقت غير مناسب.

استمر أبي ينقل الماء أحد عشر يوماً. وأخذت نقمته تزداد يوماً بعد آخر، أما أمي فقد ضاقت بالشتائم كثيراً. حتى أصبحت تخرج إلى الفسحة الخارجية أمام البيت، وترفع يديها إلى السماء وتقول بصوت عالٍ تريد أبي أن يسمع جزءاً منه:

- اللهم اهديه أو اخفيه.

ومن داخل الغرفة يصرخ أبي:

- لماذا لا تقولي لله أن يرجّع التركماني بدل أن يأخذني؟

ويصمت لحظة قصيرة تتيح له أن يغيّر بنبرة صوته، ويتابع:

- إذا أخذني من يحضر لك الماء؟

وتصمت أمي ولا تجيب.

ظلت الأمور تسوء فتهدد بالانفجار إذا جاء وقت إحضار الماء، ثم تهدأ مع كأس الشاي، فيعود أبي رجلاً رضياً أنيساً، تزغرد على لسانه كلمات الدعاء والدعابة وهو يتذكر:

- الله يرحمك يا تركماني ويحسن إليك.. لأن الحمار لا يطيق الشغل الذي كنت تشتغله، وتتغير طبقة الصوت ويضيف كأنه يخاطبه؛ عملت زينة العقل يا تركماني عندما قررت أن تموت. نم في قبرك دون حركة. فقد تحركت على هذه الأرض مثل دودة عمياء؛ إحذر أن تتحرك الآن، إذا تحركت، فأنا..

ويضحك وهو يضيف، نعم أنا أول من يقول لك:

- أيها الصرصار المقلوب على قفاه، يجب أن لا تهدأ لحظة واحدة.. وسوف أنخزك في جنبك وأصرخ:

أحضر الماء يا صرصار.

وتهز أمي رأسها بأسف، فإذا تكلمت تقول:

- ضاعت الرحمة بين الشتائم، هل تريد أن تترحم عليه أو أن تشتمه؟

وينظر إليها بغضب، لأن ما قاله يعتبره مديحاً لا يمنحه لأحد أياً كان، فإذا قامت من وجهه في إشارة إلى أن كلامه لا يحتمل الرد، عاد إلى التركماني، ولكن بطريقة مختلفة:

- صار لك أصدقاء بعد أن متّ. متّ دون خوف فجميع الناس يحبونك الآن. وسوف تغرقك رحمتهم أكثر مما غرقت بالماء. لو كنت حياً يا تركماني لكانت هي أول من شتمك، انظر بعينك الشوصاء وتعرّف على الناس.. آه يا تركماني.

وتضيق أمي بالتعريض. كانت لا تتركه يفلت منها، فلا بد من كلمة تمسه دون أن يحس بها أحد غيره. كانت تقول:

- غداً يأتي العيد، وفطرة عائلة الراغب، راحت منك يا تركماني.

ولقصة الفطرة ذيول لم يكن أحد يعرفها سواهما، لكن بعد أن كررتها أمي كثيراً، انكشف الأمر.

فقبل العيد الماضي، جاء التركماني يريد الفطرة، وظل أبي يماطله يوماً بعد يوم، حتى جاء أول أيام العيد، وعند

الضحى، قال له:

- الفطرة.. يا تركماني، هذه السنة أعطيناها لامرأة أم أيتام، ومد يده إلى جيبه وأخرج بضعة قروش وضعها في يد التركماني.

وحقيقة الأمر أن أبي لم يعط الفطرة لأحد، لأنه في الليل، بعد أن شعر بتأنيب الضمير قال لأمي:

- يا امرأة.. كذبت اليوم على التركماني، الفطرة لم أعطها لأحد، رددتها علينا.

واستغربت أمي كثيراً، حتى كادت تبكي. وبعد أيام عاتبت أبي ووعدها أن يصلح موقفه في العيد الثاني.

مات التركماني قبل أن يأتي العيد. وأمي تذكر القصة بهذه الطريقة لكي تعرض بأبي وتخرجه عن طوره. ودون أن ندري لثورته سبباً نسمعه يقول:

- وأبوكِ ألم يشترِ من الشحاذين الخبز؟

- أبوك الشحاد، أبي خيره ملء العيون، أما أبوك. فماذا ترك لك؟

- لا أريد أن يترك لي شيئاً، لكن قولي لي من أين جمع أبوك هذه الفلوس؟

- كدّهُ وتعب يمينه!

- من شراء خبز الشحاذين.. من الفائدة، من السرقة!

- أبي أشرف منك.

- أشرف مني؟

- مائة مرة. إسأل عنه كل الناس. أما أبوك فعندما مات ظل ثلاثة أيام دون أن يحس به أحد حتى جاف وملأت رائحته الدنيا.

- أبي فقير، لكن أشرف من أبيك مائة مرة. حذاؤه..

- لا تكبّر كلامك.

- الحق مسمار في جنبك، تخافين من الحق..

- لا أخاف من شيء!

- عائلة شجعان.. وأنتِ مثل أبيك لا تخافين من شيء.

- رجعت لأبي.

- أبوكِ أحسن الناس.. الحاج محمد المبروك الله يرحمه سمسار، لا يشتغل بالفائدة.. وماذا تريدين أيضاً؟

وتجهش أمي بالبكاء.

لـمّا دخل خالي عصر ذلك اليوم، لاحظ صمتاً متوتراً يخيم على البيت، ورأى بقايا دموع في عيني أمي، أما أبي فكان يدور مثل سجين في زنزانة. نظر خالي إلى الوجوه باستغراب وحيرة، ولكي يخلق جواً جديداً، ويعطي لنفسه فرصة يفكر، قال لأخي راغب:

- أعطني ماء، لأبلّ ريقي وأعرف كيف أتفاهم معك.

وقبل أن ينتهي من طلبه، ردّت أمي تحاول أن تكسبه بسرعة: الماء أبعد من السماء.. حرمنا منه، يريد أن يقتلنا!

وانخرطت في نوبة من البكاء. كان بكاؤها حاداً عالياً، مما دفع أبي لأن يصرخ بأعلى صوته:

- لو كنت حماراً لتعبت من نقل الماء. والتفت إلى خالي يخاطبه بلهجة غاضبة شاكية:

- يا رجل أختك لا تشبع عينها إلا التراب، فأنا لا أكاد أصل بحمل الماء حتى تدلقه في البالوعة.. وتبدأ تشتكي: الماء.. الماء.. لو كان الماء ذهباً لما طمعت فيه هكذا، لكن ما دمت أنا الذي يحمل الماء، فهي تريدني أن أتحول إلى سقاء، لكن فشرت!

ظل خالي لا يدرك الخلاف حتى قامت أمي وغسلت وجهها، من قدر كانت تحتفظ به بعيداً وتحذر الجميع من الاقتراب منه، لأن ماء هذا القدر يجب أن لا يستعمل إلا في الحالات النادرة ويمثل بالنسبة لها إنذاراً خطيراً إذا بدأ استعماله؛ ومن نفس القدر حملت لخالي كأساً شربه. وعلى طريقته في فض الخلافات التي تقع كثيراً بين أمي وأبي، قال كلمات كثيرة دون معنى، وطلب منهما أن يتعوذا من الشيطان، وأن يهدآ ويستعملا العقل..

لما هدأ الجو.. لخص أبي الموضوع بكلمات قليلة:

- القضية، من أولها إلى آخرها بسيطة: التركماني أعطاك عمره، مات قبل عشرة أيام أو أكثر، ومن يوم ما انقصف عمره وأنا أزق الماء، أزق صباح.. مساء.. وأختك لا يعجبها العجب ولا الصوم في رجب، لا أكاد أقعد لأستريح لحظة

حتى تبدأ: انتهى الماء.. متنا من العطش.. نريد ماء.. ويا ليت الأمر ينتهي عند هذه الحدود، لو انتهى عند الماء لهان، لكن..

وتبدأ أمي تروي القصة. وقصة أمي ليس لها بداية، ويكاد كلامها ينحصر في الرد على افتراءات أبي، فتجعله كاذباً شحيحاً في كل شيء، وتستعمل دموعها في إقناع خالي، وتختم دفاعها بأن تقول:

- لم أعد أطيق الحياة في هذا البيت، وقبل أن تمشي، سوف أمشي قبلك، وأمي لا تعني ما تقول. إذ كثيراً ما هددت أبي، ودون أن يتدخل أحد تعدل عن أفكارها بسرعة وتجد لذلك أسباباً كثيرة.

في هذه المرة قامت أمي ولبست ثيابها، وقبل أن تجلس قريباً من القبة ومعها صرة ملابسها كان أبي وخالي قد اتفقا على حل.. قال خالي بصوت بطيء حاد النبرات، يخاطب أمي:

- اتفقت أنا وأبو راغب، الماء بعد اليوم لن يصبح مشكلة، ولا أريد لأحد أن يقول عنه كلمة واحدة.. لا أريد أن نصبح فضيحة في أفواه الناس.

وتنهض أمي لكي تخلع ملابسها وتنظر إلى خالي طويلاً وكأنها تتساءل عن الحل الذي اتفقا عليه. قال خالي بصوت مختلف عن قبل:

- من الغد سيكون عندكم حمار لنقل الماء . .

وضحك قليلاً ليحسم كل تردد . . وأضاف :

- إذا كنت قوية . . فجربي قوتك غداً، سيغرقكم الحمار بالماء!

- 2 -

أهكذا بدأت قصة الحمار أو بشكل آخر؟ لم أعد أتذكر بدقة. لأن الذكريات تقترب وتتباعد مثل ألسنة اللهب.

أتذكر أن رجلاً عجوزاً يلبس ثوباً حائل اللون، ويربط على قدمه، فوق الكاحل وقريباً من منتصف الساق حبلاً من الليف لكي يثبت نعلين رقيقين، لا يستران إلا القسم الأسفل من القدم، أما الكعبان فقد كانا مثل كومة من الرمال الخشنة.

أتذكر هذا الرجل يجلس عند عتبة دارنا، وقد امتلأ ثوبه وقدماه بالماء الذي يحمله، وما يكاد يعطي أمي الصفائح حتى تفترّ شفاهه اليابسة عن فم ليس فيه إلا سن واحدة، ويضحك وجهه كله وهو يسأل أمي :

- ألم تجدي لنا بنت الحلال؟

وترد عليه أمي بخبث يبين من غمزتها وضحكها :

- البنات كثيرات، وأنت ما تزال، الله يحرسك، صغيراً وفقيراً. عندما تكبر وتجمع الفلوس لا تخف.

ويرد على أمي ووجهه ما يزال يضحك :

والمال سأدبره.

- في الشتاء.. يا تركماني.

- الشتاء بعيد.

- الصيف وبعده الشتاء.

- وهل أنتظر كل هذا الوقت؟

- لم يبق شيء. الصبر جميل.

أتذكر هذا الرجل، وحديثه عن الزواج الذي يكرره كل يوم، وأمي تجيبه نفس الإجابات لا تغيرها، وفي كل يوم يقتنع، فإذا ملّ الجلوس قام بخطوات صغيرة متعبة، فحمل الصفائح الفارغة على عصاه وسار.

انقطع التركماني.. ثم مات.

وأصبح جلب الماء المشكلة التي تجعل أبي مثل تنّور يشتعل. كان يثور ويهدد، كان يصرخ على أمي كي تقتصد بالماء، وكان يقول لها وهي تدفعنا لأن نغسل وجوهنا وأيدينا:

- والله.. والله.. السمك! السمك. لايصرف ماءً مثلما تصرفين.. هل يجب أن يظلوا غاطسين في الماء؟

وبمكر تردّ أمي:

- النظافة من الإيمان!

- والحمير.. من الذي خلق الحمير؟

- وهل يحتاج هذا السؤال إلى جواب؟

وتنظر إليه بطرف عينها وهي تدفعني، أو تدفع أخي لكي نغسل أيدينا أو وجوهنا جيداً، فإذا اندلق الماء صرخ:

- أعرف أن الله خلق الحمير، لكن.. هذا الحمار من الذي خلقه؟

ويشير إلى نفسه، وبنفس اللهجة المثيرة تجيبه أمي:

- الله خلق كل شيء!

بعد تلك المعركة، التي انتهت عند الغروب، خرج أبي وخالي وقد علت وجهيهما ابتسامة كبيرة ولا أعرف من قال للآخر عندما كانت أمي تحضر لهما الشاي:

«النساء ناقصات عقل ودين.. يجب ألا يحاسب الرجل المرأة على كل شيء أو يرد على كل ما تقول؛ إذا فعل ذلك يكون عقله أصغر من عقلها»

أما الحمار فقد دخل إلى بيتنا قبل أن يصل. قررت أنا وراغب أن نحترمه كثيراً، أن لا نترك لأحد من أولاد الحارة فرصة الاقتراب منه أو الركوب عليه، وكدنا نختلف على من يركبه في النزول، عندما يكون فارغاً.. وقد حلمت بحمار أبيض كبير في تلك الليلة، أما في اليوم التالي عند الظهر، فقد رأيت عند أول المنحدر أبي، يسوق حماراً لا أعرف أي لون له، ويبدو أصغر من الحمير المألوفة، كان يشتمه كثيراً، ويضربه على وجهه لكي يجعله هادئاً.

في الحاكورة ربطناه، وطلب أبي ألا نقترب منه كثيراً، لأنه يبدو لعيناً أكثر مما ينبغي، وقد يسبب لنا أذى؛ وبعد أن

قدمنا له أكلاً، وجمعنا له من الزقاق أشياء كثيرة، تبين لنا أن لونه أقرب إلى السواد، وهذا اللون لم يكن ثابتاً، فهو يتغير إلى الزرقة إذا تعرض إلى ظل الجدار العالي، أما إذا وقف في الشمس فإن سواده يأخذ بريقاً أحمر محروقاً، قريباً من لون الطين الكامد، ومما زاد في حيرة لونه، أنه يكون بلون إذا نزل لجلب الماء، ويصعد بلون آخر عندما يبتل.

وهذا الحمار بقدر ما خفف من المعارك بين أمي وأبي، خلق بيني وبين أخي معارك لا تنتهي. في البداية تضاربنا، اختلفنا كثيراً من يركبه ومن لا يركبه، وضربني أحد الأولاد عندما رششت عليه الماء، لأنه حاول تقليد الحمار، مما يسبب له إثارة غريبة لم نكن نعرف لها سبباً، وإن كنا لا نحب لحمارنا أن تصيبه.

في وقت من الأوقات، رأينا أن نشتري له طوقاً من الخرز الأزرق، ونضعه على رقبته أثناء العمل، أما إذا انتهى عمله فيجب أن ننزعه مثلما ننزل عنه كل شيء.. وهذه الفكرة التي رفضها أبي بإصرار، أول الأمر، نفذناها على مراحل، فقد اقتنعت أمي، وأعطتنا ما يكفي لشراء قليل من الخرز، أضافت لها أزراراً وكراكر صغيرة، وصنعت منها جميعاً طوقاً عجيباً أثار ضحك الناس أكثر مما أثار إعجابهم، وإزاء هذا الضحك لم يتمالك أبي إلا جرِّ الطوق ذات مساء، عندما اختلفت مع أخي عمن يذهب لجلب الماء، وقطّعه ورمى كل شيء وراء سور الحاكورة.

وهذا الحمار كان يقفز بحوافره الأربعة خلال الأيام الأولى، مما دفع أبي لأن يشتمه كثيراً، ويقول فيه كلمات بذيئة، يخجل أن نسمعها منه، فيلجأ إلى ضربه أكثر وبصمت حاقد بعض الأحيان لكي يخفِ أثر الشتائم. . هذا الحمار نفسه تحوّل إلى حمار حقيقي خلال فترة قصيرة، إذ لم يعد يستعمل قوائمه الأربع بتاتاً، وفي حالات قليلة، عندما يثار بطريقة شاذة، كان يستعمل قوائمه الخلفية فقط، حتى القوائم الخلفية، تغير استعمالها كثيراً، أما عندما أصيب بالعقل والرصانة، كما يقول أبي، أصبح يكتفي بأن يرفس بإحدى قوائمه الخلفية إذا كان ظهره عارياً بدون أحمال.

في وقت من الأوقات بدأت أشفق كثيراً على الحمار، وبدأت ضربات أخي ووخزاته تثيرني لدرجة قررت معها أن أجلب حمل الصباح بنفسي، فأمي التي لا نعرف متى تنام ومتى تستيقظ، كان يروق لها أن نبدأ يوماً جديداً بماء جديد، وهذا معناه أن يفيق أحدنا لجلب الماء قبل طلوع الشمس، فإذا كان دور أخي، قام والنعاس في عينيه، وبدأ يكيل للحمار نفس الشتائم التي يستعملها أبي، ولا يكتفي بالشتائم، إذ ينهال عليه بالضرب، وكان يختار أماكن حساسة تسبب للحمار ألماً لا يحتمل. كان يضربه على وجهه تماماً، وعلى الشفتين أكثر ما يكون. . وهذه الطريقة التي لم أغفرها له أبداً، جعلتني أقوم كل صباح حتى لا ينزل غضب أخي من الاستيقاظ على الحمار، وفي أيام الشتاء الباردة لم تفكر أمي بأن تنقص

استهلاك الماء، ولم تفكر أن تغير عادتها في الاستيقاظ، وخلال هذه الفترة تعلمت بعض الشتائم، خاصة إذا انزلق الحمار وحملُه على ظهره. كنت صغيراً لا أستطيع شيئاً.. لم أكن أستطيع أن أنهضه، مما يدفعني لالتماس معونة أحد. أما الماء الذي على ظهره فأسفحه بغضب لكي تفرغ الصفائح وأعيد ملأها من جديد؛ وفي مرات معينة تعمّد الخبيث أن يجتاز طريقاً على المنحدر لا يمكن لأحد، سوى الماعز، أن يفكر في اجتيازه، وكان قريباً من البيت، ومن الطبيعي أن ينزلق ويندلق الماء.. أتذكر أنني في تلك المرة شتمت الحمار بنفس الطريقة التي يشتمه أبي، ورجعت إلى البيت، وقلت لأمي بغضب إنني أطلب إعفائي نهائياً من صداقة هذا الحيوان اللئيم، ولم أقل شيئاً آخر.

وأتذكر أن حمارنا لم يكن سيئاً بين الحمير.. كان في البداية يركض مثل حصان، وكنا نفاخر به ونجعله يستعرض كل عصر بين بيوت الحيّ، وأغلب الأحيان لا أجرؤ على ركوبه جيداً، اختلفنا مرات كثيرة على ركوبه، وقد عزا أخي سر الفشل إلى عدم درايتي، وفي المرات التي حاول بعد ذلك أن ينزل إلى السباق، لم يحصل على نتائج مشجعة، ويقول مبرراً فشله، إني المسؤول عن ذلك؛ لأن الكسل أصبح فيه عادة، وتأكدت من كلامه بعد أن أشار إلى حمير جيراننا وكيف أن عنايتهم بها تفوق عنايتنا! ورغم المحاولات التي بذلناها، لكي نعيده إلى سابق عهده، ورغم زيادة الطعام وتغسيله، فإنه لم

يتقدم إلا ببطء شديد مما دفع أخي لأن يعلن يأسه أمام عدد من الأولاد. أما أنا، فقد طلبت مهلة أسبوع، وتحديت أن أجعله يسبق جميع الحمير. وخلال ذلك الأسبوع حاولت كثيراً، لكن النتيجة كانت مخيبة لدرجة حيرتني، فلم أجد سوى حجة المرض سبباً أدافع عنه وأشرت إلى دملة على ظهره، في الوسط تماماً.

وخلال الزمن تغيرت أشياء كثيرة في الحيّ، وفي الأحياء المجاورة، وقد تمت ببطءٍ، وبعد سنوات من شراء الحمار، وخلال هذه الأوقات تغيرت علاقات أمي وأبي، أصبحا بحكم السن، وربما لأن أبي لم يعد مفلساً مثل قبل، أصبحت علاقتهما تتسم بالحكمة والاتزان، اختفت الشتائم من البيت، إلا حين تبالغ أمي بمطالبها، عندئذ كان يثور أبي، فإذا بدأ يذكّرها بأبيها انتهت المناقشة بسرعة وكآبة.

وأخي راغب تغير؛ في وقت من الأوقات وقف في وجه أمي، بعد أن ترك البيت وقال بصوت عالٍ، وهو يكسر الطبق الذي بين يديه:

- بعد اليوم لن أسوق الحمار شبراً واحداً..

انفجرت من عينيه الدموع فجأة وقال يخاطب أمي بطريقة جعلتني أوافق على كل شيء:

- هل تقبلين أن يضحك عليّ أولاد المدرسة؟ كلهم يقولون عني سواق الحمير..

أصبحت أنا والحمار عالماً واحداً. في الصباح قبل

شروق الشمس أسوقه لجلب الماء. وفي النهار أجلب له الطعام.. وبعض الأحيان أوفر له الحماية الضرورية: أطرد الكلاب والقطط وأفك رباطه إذا تعرّض للشمس وأتركه يرتاح أينما يشاء في الحاكورة.

وجاءت الفترة اللعينة التي تغير فيها كل شيء:

أصبح الحمار بطيئاً لدرجة أني بدأت أشتمه دون تردد، ثم بدأت أضربه، ولم أعر بالاً للرجل الذي حاول أن يتدخل عندما ضربته على رأسه، وعلى وجهه، وعلى شفتيه!

في هذه الفترة.. انتهى الأمر بشكل حزين.

- 3 -

لا يجدر بي الآن أن أتذكر شيئاً نابياً، فقد كانت اللحظات الأخيرة حادة ومليئة بالعذاب، وحتى الآن، رغم مرور سنوات كثيرة، فإن ذكريات تلك اللحظة المشتعلة القاسية تربض في مكان حساس من رأسي، حتى لتجعل كل حمار على وجه الكرة الأرضية، أخاً لي بشكل ما!

لم يحصل الأمر فجأة، فبعد أن تغيرت أشياء كثيرة في حيّنا، تغير الحمار أيضاً.. امتلأ ظهره بالدمامل، ثم تقيحت هذه الدمامل وصار يسيل منها الدم على ظهره حتى البطن، ووقع أكثر من مرة، والغريب أن سقوطه في هذه المرحلة، كان يترافق مع جروح وآثار لا تشفى بسرعة. أما عيناه فقد امتلأتا

بالقذى وأخذتا تسيل منهما الدموع بلا توقف.

قالت أمي بصوت خشن صلب، وكان أبي يطل إلى الجبل المقابل وهو يستند إلى الجدار الصغير:

- أترى. . كل شيء تغير. . الماء وصل أعلى الجبل، وأنت لا تريد أن نعيش مثل باقي الناس!

- الصبر جميل يا أم راغب.

- ليس بعد الصبر إلا القبر.

- وماذا لو متنا؟

- ولكننا نريد أن نعيش قبل أن نموت.

- لماذا لا تشكرين الله؟ كثيرون لا يعيشون مثلنا.

- وهل بقي أحد يحضر الماء على الحمير؟

- سبحان الله. . قبل كم سنة لم تكوني تريدين إلا حماراً، والآن. .

- أنا أو الحمار في هذا البيت، إذا لم تتخلص من هذا الحمار القذر الأجرب ذهبت إلى بيت أخي.

هكذا بدأت القصة أول مرة.

بعد أيام تكررت التهديدات وبلهجة أكثر صلابة. وهكذا بعد عدة أيام دعت أمي نساء الجوار ليتفرّجن على الآلة العجيبة التي تجلب الماء من أقصى الدنيا، وفي ذلك اليوم نفسه كنا أنا وأبي نقود الحمار الأجرب العجوز باتجاه المحرقة، بعيداً عن البلد ونتركه هناك.

عند الغروب أو بعده بقليل، صنعت لنا أمي شاياً من الماء البارد الذي جاءنا لأول مرة نظيفاً شفافاً لا تعب فيه، وقالت، وأبي صامت يتطلع إلى البعيد ويفكر، إنها لم تذق بحياتها شاياً مثل هذا الطعم!

في الصباح التالي، ما كادت أمي تفتح الباب لتسفح قدراً من الماء للبركة، كما تقول حتى تراجعت وهي تصرخ. . قفز أبي وكأن حية لدغته، وما إن اقترب من أمي، ونحن نركض وراءه، حتى رأينا الحمار يقف عند عتبة الباب.

كان عجوزاً حزيناً، ينظر إلى كل شيء ببلاهة، وكاد يتقدم لولا أن ساق أبي دفعته وأنهار عليه بجملة شتائم!

بعد ظهر ذلك اليوم. . بدأنا الرحلة الحزينة. . كنا ثلاثة هذه المرة، فقد أُمر راغب أن يرافقنا، ويساعد أبي، كانت الشمس تملأ الدنيا، وكان لون الحمار أقرب إلى لون الطين الكامد، وقد فارقته الزرقة، أما الذباب فكان يتطاير على ظهره دون تعب، وقريباً من المحرقة، نظر أبي حواليه نظرةً رصينة متأنية، ثم طلب منا أن نقف وراءه، بعيدين عنه بضع خطوات؛ وبهدوء بليد أخرج مسدساً وصوّبه بعناية كبيرة إلى رأس الحمار وأطلق. . أطلق ثلاث طلقات. وسقط الحمار ببؤس أخرس، ونفرت الدماء بغزارة ومن مواضع كثيرة، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، كان إلحاح راغب شديداً مما دفع أبي لأن يعطيه المسدس بعد أن استبقى فيه طلقة واحدة، وما كاد راغب يمسكه حتى تقدم بهدوء خائف، ويده ممدودة إلى

أمام، وحين أصبح فوق الحمار تماماً. . صرخ وهو يطلق الرصاصة التي استقرت في عينه. أما العين الثانية فكانت تسيل منها الدموع، وكانت تسيل بغزارة!

شعرت بحزن مخيف لما رأيت الدم ينفجر من عين الحمار التي كانت إلى قبل لحظة تطل على السماء!

طير ابن فوزان



فليّح الفوزان شيخ من شيوخ هيثم، إذا كان بين أفراد القبيلة؛ أما إذا كان بعيداً، في المدينة، أو بين غرباء لا يعرفون أنساب القبائل، فيقول مُعرِّفاً بنفسه: الشيخ فليّح الفوزان شيخ مشايخ هيثم. وبعد أن يترك لسامعه فرصة كافية لكي يتشرب كلماته، يضيف «ولا يخفى عليكم أن هيثم أكبر قبائل العرب».

الذين يعرفون فليّح، (أو الذين يعرفون أحساب العرب وأنسابهم)، يقولون عنه إنه شيخ صغير لفخذ من العشيرة، ويتمادى بعضهم فلا يطلق عليه إلا شويّخ. ولكن هذا التمادي لا يكون أمامه أبداً؛ لأن فليّح الفوزان رجل متعب، ويسبب الكثير من المشاكل.

كان قصيراً، مليئاً، كبير البطن، لكن أبرز ما يميزه طريقته في الكلام وصوته. كان إذا جلس في مكان لا يترك لأحد فرصة لأن يتكلم، فإذا تكلم فبصوتٍ عالٍ حاد الجرس، وتترافق كلماته مع حركات يديه؛ أما استعماله ليديه فإنه كان يختلف تماماً عن أي إنسان آخر، كان يمسك أي رجل بقربه من كتفه، ويهزه، أو يطبطب على ساقه، أو يمسكه من يده

ويجره قليلاً ليقربه من وجهه ويجعله أكثر إصغاءً؛ وهذا كان يترافق مع زخات الرذاذ التي تخرج من فمه مع الكلمات. لذلك لا يجرؤ أحد على أن يجلس بجواره، وكثيراً ما اعتذر الجالس إلى يمينه لأمر طارئ، لكي يفلت منه. وفي هذه الحالة يلتفت فوزان إلى هذه الناحية أو تلك ليتأكد أن أحداً بقربه فيغير جلسته ليصبح قادراً على مواصلة الحديث بحرية، مستعملاً يديه ورذاذ فمه. أما إذا لم يجد أحداً فيلجأ إلى سلطته كشيخ وينادي أي رجل ويجلسه إلى جانبه ويواصل الحديث.

أما الأحاديث التي يخوض فيها الشيخ فإنها لا تكاد تنتهي ولكنها لا تتغير، وأياً من معارفه لا يسمع بداية حديث ما حتى يتذكر أن فليّح ردده من قبل مرات كثيرة، ومما جعل الرجال أقل ميلاً للإصغاء وهو نفسه ما جعل فليّح يجبر الجميع على الصمت والاستماع إليه، وهذا ولّد لديه ميلاً إلى تأكيد وجوده بكل الطرق؛ باستعمال الصوت العالي، وباستعمال اليدين، وبعض الأحيان بالصوم عن الكلام!

كانت تمر أيام لا يسمع أحد صوت فليّح أبداً، وحتى لو سُئل فإنه لا يجيب، وفي هذه الأيام يتحاشاه الناس، لكي لا ينفجر غضبه، لأنه إذا غضب لجأ إلى الضرب والإهانة، وربما لجأ إلى أشياء أكبر من ذلك بكثير!

وحالات الصوم هذه، رغم أن الناس يذكرونها عن فليّح، ويسمونها صوم زكريا، فإنها لا تتكرر كثيراً، لأن الصوم لا يتناسب مع كفاءته ودوره كشيخ، كما أن الناس الذين حوله

تعودوا على مزاجه وعرفوا نقاط قوته وضعفه، فلا تكاد الأحاديث تبدأ، حتى يتحدثوا عن أمور سمعوها منه، ويتعمدون أن يخطئوا في روايتها مما يدفعه دفعاً لأن يصرخ:

القرآن لم يتكلم إلا عن زكريا، وأنا فليح السوزان لا أعرف زكريا ولا تربطني به قرابة. النبي محمد، لم يصم عن الكلام يوماً واحداً. وأنا لست أحسن من محمد حتى أصوم.

كان يبدأ هكذا، حتى إذا نظر اليه الناس وهو يجيل فيهم نظراته الصارمة، يقول وهو يهز رأسه مؤنباً:

تعلموا يا بهائم، احفظوا الأقوال التي أقولها لكم ولا تخطئوا في روايتها. اسمعوا مني وخذوا عني.. فغداً سأموت، وستصبحون أيتاماً.. العرب بالفصاحة واللسان.

فإذا جرى الحديث عن الخيل، فإن فليّح لا يتحدث حديث رجل ضعيف، لا ينقل عن الآخرين قصصاً خيالية، بل يتحدث عن خيوله، وعن معاركه المريرة التي خاضها من أجل حصان على مسيرة خمسة أيام أو عشرة. كان فليح يقول: «من يستطيع أن يتحدث عن الخيل، أيها الرجال، وأبو مشعل موجود؟» أو يتحدث عن الحمدانية، وعن الصقلاوية، ويسرف كثيراً في إطراء الصفات والنسب، ويسرف أكثر من ذلك في ذكر الحالات التي اضطر فيها لأن يمنع حصانه الأسود الاقتراب من أي فرس لاعتقاده أن الفرس الذي يجب أن يشبّها لم تولد بعد، رغم الإغراءات الكثيرة والضغط الذي تعرض له من شيوخ آخرين أو من الأمراء.

أما إذا أخطأ أحدهم وسأل فليّح عن مصير تلك الخيول، وأين أصبحت ولماذا لم تخلّف، فإن غضباً ملتهباً يجتاح الجلسة كلها. كان فليّح يقول بلهجة قاسية ساخرة:

- وهل الخيول مثل الإنسان تعمر ألف سنة؟ أين الحمدانية الأم؟ ألم تمت؟ وهل تريدها أن تعيش إلى ماشاء الله؟

ويغير صوته، فيصبح هادئاً رشيداً، ويتابع:

- الخيول يا جماعة عمرها قصير. والفرس التي لا تموت موت ربها، إما تلدغها حية أو يصيبها طلق،... وهكذا تنتهي الخيول!

والناس يعرفون كم تعمّر الخيول، ويعرفون أن لدى فليّح حصاناً هرماً لا يساوي ثمن العلف الذي يقدم إليه؛ رغم ادّعاء الشيخ أن هذا الحصان ثابت النسب وشهير، لكن أحداً لم يطّلع على صبحته، ولم يشاهد القوة أو الوسامة التي تتمتع بها عادة الخيول الأصيلة.

فإذا انتهى حديث الخيول، بدأ حديث السلاح، فلدى الشيخ فليّح أحاديث كثيرة:

- ومن لا يذكر البارودة الموزر التي كانت لدي؟ «الله يا أبا مشعل... لو فقدت ولدك ولم تفقد تلك البارودة» كانت لا تَحمَى أبداً... بواريد هذه الأيام تبصق الفشك؛ بعد عشر طلقات تَحمَى، أما الموزر...

ويهز رأسه أسىً، وهو قابض على كتف جاره يهزه دون وعي ودون معنى؛ «الموزر كانت لها أخت عند القائد الإنكليزي... وبعد هذه وتلك لا يوجد، يا جماعة بواريد».

أما أين أصبحت بندقية فليّح التي يتحدث عنها، فالجميع يعرف أنه رهنها لدى تاجر أرمني في المدينة، وفي الموسم التالي، وكان موسماً جيداً، لم يفكر في أن يستردها، لأنه قال لمن ذكّره بها... «لا تعادل السفر إلى المدينة».... وأضاف وهو يضحك «ضحكنا على الأرمني وقلنا له ضعها عندك أمانة، ولا نريد أن نبيعها حتى لو وضعت لها ثمناً ذهب الأرض».

وحديث السلاح يستغرق فليّح كثيراً، ويدفعه إلى التأمل والتفكير، لأنه يحلم منذ زمن طويل بهذا النوع الجديد من البنادق، والذي أصبح لدى كل شيخ من الشيوخ الذين يعرفهم.

وينتهي حديث السلاح ليبدأ الحديث عن المدينة، فإذا تحدث أحد العائدين عما شاهده فيها فإن صوت فليّح يرتفع فوق الأصوات، لأنه الوحيد الذي يعرف ما هي المدينة! رغم أن علاقته بالمدينة لم تكن تثير الشفقة فقط، وإنما تثير السخرية أيضاً.

كان همُّ فليّح الوحيد أن يتميز عن جميع الشيوخ، ويعلو فوقهم، لذلك يلجأ إلى كل الوسائل التي تمكنه من ذلك. اشترى مرة نظارة طبية، وعاد إلى القبيلة وهو يلبسها؛ وقد أثار من الدهشة والاستغراب الشيء الكثير، فلم يعرفه الناس بادئ

الأمر، وفي مساء تلك الليلة كان الحديث عن النظارة يطغى على كل شيء. . . كان يرفع النظارة بين أصابعه، ويقلّبها وهو يقول «هذه النظارة تجعل حبة القمح بحجم حبة الفول» «هذه النظارة إطارها من الذهب الخالص عيار 24. أما الطبيب الذي فحصني وأعطاني هذه النظارات فقد قال: «هذه النظارات لا يوجد شبيه لها إلا في ألمانيا، ولم يستورد غيرها أبداً».

وحقيقة الأمر أن الشيخ فليّح أثناء زيارته للمدينة التقى بطبيب أسنان أثناء زيارة محاكم الصلح، وقد كان هذا الطبيب يلبس نظارة. ولما سأله الشيخ عن فائدتها ذكر له أنها تفيد في وقاية العين من الغبار وتقوي البصر. ولم يغادر الشيخ المدينة حتى اشترى واحدة، وطلب إلى الساعاتي الذي اشتراها منه ألا يذكر لأحد شيئاً عن ذلك.

ليست النظارات كل شيء في حياة الشيخ، فقد اشترى أيضاً مذبّة لطرد الذباب عندما رأى ضابطاً جركسياً متقاعداً يحمل واحدة مثلها. كما أنه اشترى معطفاً طويلاً؛ وقد سبب له هذا المعطف كثيراً من المتاعب، عندما كان يلبسه تحت العباءة، خاصة إذا ركب الحصان الحمداني!

كان هذا كله شيئاً من الماضي. أما حياة الشيخ فليّح فقد تبدلت كثيراً في الفترة الأخيرة عندما امتلكه هوس القنص.

فقد زاره في الفترة الأخيرة عدد من شيوخ الخوالد، وكانت معهم مجموعة من طيور القنص، وقد خرج معهم ورأى بعينه كيف تقنص الصقور طيور الحباري والأرانب

وتصطادها، وقد أعجب الشيخ فليّح بذلك إعجاباً شديداً، وظل يتحدث للناس الذين حوله أياماً متواصلة «والله يا جماعة. . . الطير بكبد السماء، لا تراه العين، ومثل الشهاب يهوي، وتنشب مخالبه بالحباري، أما إذا لحق الحبارة بالسماء. . الله. . . عجيب».

لم تنقض أيام قليلة على هذا الحديث حتى عاد الشيخ فليّح من سفرة مجهولة ومعه صقر. كان صقراً مختالاً لونه أقرب إلى الرمادي، وحول فمه لجام من الجلد يغطي القسم العلوي من المنقار والعينين.

ومنذ ذلك الوقت تغيّر الشيخ فليّح تماماً. . أصبح شغله الوحيد الاهتمام بالصقر. كان يعتني به شخصياً ويدربه تدريباً خاصاً، وقد صمم أن لا يسمح لأحد أن يصطاد به.

كان الشيخ يخلع كل ثياب الشيوخ، ويخرج إلى مسافة بعيدة عن القبيلة، ومعه رجلان أو ثلاثة وتبدأ عملية التدريب:

«يا صايح. . . يا صايح. . أنت اسمك، صايح، لا تنسَ اسمك يا محروس. . . » صايح، يا صايح ويظل يصرخ بأذن الطير. كان يصرخ حتى يبح صوته؛ أما لماذا اختار هذا الاسم وما الذي أغراه به، فلا أحد يعرف، رغم أن الشيوخ الذين مروا عليه قبل أيام كانوا يعطون لصقورهم أسماء مختلفة. كانت أسماء الصقور: الجارح، عقاب، وسلطان، وسمع الشيخ فليّح من قبل أسماء صقور مثل الأدهم، عجاج، منصور. أما هو فلم يجد خيراً من اسم صايح. وهكذا ظل

يدربه دون تعب. كان يقضي وقتاً طويلاً في تدريبه، حتى إذا عاد به، أكرمه وأجزل له. وكان يروق له كثيراً أن يراقبه أثناء الأكل.

وهكذا أصبحت ليالي الشيخ أحلاماً. كان يتصور صايح مهدوداً في كبد السماء يطارد الطيور ويمزقها. ويتصوره بوقفته المختالة على قبضة يده، ينظر يمنة ويسرة، فلا يكاد يرى طيراً حتى يطلب الهداد، فإذا أحس الشيخ بطيره يطلب أن ينطلق حتى يطلقه، وفي ثوان قليلة ينقض على فريسته ويقتلها... ويركض رجال الشيخ ليأتوا بالفريسة... ويعود الطير إلى مكانه، على قبضة الشيخ انتظاراً لصيد جديد.

كانت هذه الأحلام تعاود الشيخ في كل وقت، في الليل والنهار، وكان قد حدد ثلاثة أسابيع فترة لتدريب الصقر وتحضيره للصيد. ولا أحد يدري، إن كانت هذه المدة قد حددها الشيخ بنفسه، أما أن الذين باعوه الطير حددوها له... فما كادت الأسابيع الثلاثة تنتهي، حتى استعد الشيخ فليّح للرحلة الخطيرة.

دعا عدد من الرجال لمرافقته، وقد حرص على أن يختارهم بعناية، وكان لاختيارهم أسباب متفاوتة، فالرجال المرموقون يجب أن يدعوا، أما هؤلاء الفاسدون الذين لا يكفون عن الثرثرة، فقد كانت دعوتهم ضرورية لكي تخرس ألسنتهم التي تطاولت في الفترة الأخيرة، وبدأت تهمس بأشياء لا يمكن أن تقال.

في مكان بعيد، تخفف الشيخ فليّح الفوزان من أكثر ملابسه، لم يعد يطيق أكثر من الثوب، ومنديل وضعه على رأسه، لكي يتقي الشمس كما قال، وعلى قبضة يده وقف صايح بكل اختياله وقوته. . .

كان الرجال ينظرون إلى ابن فوزان وهو يرفع الصقر فوق قبضته المطبقة الممددة، وينتظر دق اللحظة الحاسمة التي يطلب فيها الطير الهداد. . . والشيخ بكلمات هادئة أنيسة يدلل الطير ويهمس بأذنه كلمات لا تتعدى التشجيع وترديد اسمه. . .

وفي لحظة انتفض الطير وانتفض معه الشيخ فليّح، وفي اللحظة التالية، ساد الصمت وأُطلق الطير. . . وما كاد يرتفع في الجو قليلاً حتى بدأت صرخات الشيخ تطارده:

- هذا يومك يا صايح. . . إيه يا صايح. . . يا أحسن الطيور يا صايح.

وغاب الطير. . . . غاب حتى لم يعد يراه أحد. وبدأ القلق يمزق قلب فليّح الفوزان، وبدأ الرجال ينظرون الى السماء وينظرون إلى الشيخ نظرات تمتزج فيها الحيرة بالتساؤل، أما السفهاء فقد ارتسمت على شفاهم ابتسامات بدأت تتسع ما اتسع الوقت وامتد والطير لا يعود. . .

ولكن من بعيد. . . بدأ خيال الطير. . .بدا صغيراً غامضاً أول الأمر. . .ثم كبر وهو يتقدم وما كاد يصل فوق الرجال حتى خيم على الجميع صمت ورعب.

هرب الرجال، تفرقوا... والشيخ فليّح الفوزان يركض في كل الاتجاهات ويصرخ... يريد أن ينجو بنفسه... والطير لا يترك فليّح، يحوم فوقه، يريد أن يسقط عليه، والشيخ يتراكض، يصرخ يحاول أن يجد شيئاً يتقي به... والطير لا يكف... كان الطير يحمل بين مخالبه حية سوداء يريد أن يسقطها فوق رأس فليّح.

بعد فترة تمالك أحد الرجال الطير، فضربه بعصا، فسقط وسقطت الحية معه، وركض نحوهما الرجال، وبصعوبة قتلوا الحية... أما الطير... فقد وقف في مكانه ينظر إلى الرجال نظرة اختيال وغضب... حتى إذا تقدم منه فليّح الفوزان يريد أن يقبض عليه فرد جناحيه وطار، ولم يعد بعد ذلك.

ومنذ ذلك اليوم، تغيرت طباع فليّح الفوزان، أخذ يصوم عن الكلام فترات طويلة... ولا يغضب. أما السفهاء فإنهم لم يكفوا عن تذكير الناس، كلما ابتعدت القصة أو نسيت.. كانوا يقولون: «مثل طير ابن فوزان.. يصلّت الداء على راعيه».. ولا يتوقف السفهاء عند ذلك، إذ كانوا يقولون.. إن الشيخ لا بد أن يغضب، ويعود إلى سيرته الأولى، فينزل الداء في القبيلة كلها!

صويلح



- اسمك؟

- صويلح الناصر.

- عمرك؟

- خمس وأربعون سنة.

- شغلك؟

- متسبب.

- متسبب؟

- نعم.

- ما معنى متسبب؟

- على باب الله.

- إحكي مثل الناس، وإلا كسرت رأسك.

- ما بك يا ولد أخي؟

- أسألك ما هو عملك؟

- لا عمل لي يا ولد أخي.

- وكيف تعيش؟

- على باب الله الكريم.

- أقول لك آخر مرة، تكلم مثل الناس وإلا أنزلتك إلى القبو، وهناك يمكن أن. . .

- يا ولد أخي ما عندي شغل؛ هل هذا عيب؟

- ألا تخجل من نفسك؟ لماذا لا تعمل؟

- والله، يا ابن أخي، ما العيب إلا العيب، وما عملت شيئاً معيباً. أعطني عملاً وترى بعينيك!

- لماذا لا تفتش عن عمل؟ هل تريدني أن أفتش لك؟

- والله يا ابن أخي، لم أجد عملاً! وصاحبكم يمنع عودتي إلى الأرض، قال لي آخر مرة، إذا عدت إلى هنا فسوف أدفنك وأنت حي.

- أنا لا أريد هذه الكلمات السخيفة، هل بحثت عن عمل آخر ولم تجد؟

- والله، يا ابن أخي، أنا فلاح ولا أعرف إلا الأرض، وليس عندي الآن أرض لأزرعها.

- ولماذا لا تبحث عن عمل هنا في المدينة؟

- وماذا تريدني أن أعمل؟

- أي شيء. . أي شيء. . عتال، ماسح أحذية. فاعل.

- والله، يا ابن أخي، لا أقدر أن أعمل هذا.

- لماذا؟

- لا أريد.

- هل تريد أن تموت جوعاً؟

- الكلاب لا تموت من الجوع!

- تأدب. .يبدو أن لسانك طويل ويجب أن تنزل إلى القبو حتى تتعلم معنى الأدب.

- والله، يا ابن أخي، أنا لا أخاف من القبو. . هذه ليست أول مرة، لكن يبدو أنك جديد هنا ولا تعرف صويلح. . إسأل جماعتك عن صويلح.

- سمعت عنك، وهذه المرة أستدعيتك فقط لأتعرف عليك، لكن تأكد أنه إذا وصل لعلمي أنك فعلت شيئاً، أي شيء، فإن عظامك سوف تبلى في القبو. اسمع يا صويلح أنا لا أقبل شفاعة أحد، ربما لا تعرفني، وإذا أردت الآن فيمكن أن تجرب وتتأكد.

رن الضابط الجرس، ونزل صويلح إلى القبو، وظل هناك أسبوعاً، ولما خرج كانت آثار جرح عميق ما تزال ظاهرة على خده الأيمن، أما عباءته فقد تمزقت بحيث لم يعد ممكناً إصلاحها.

ليست هذه أول مرة، ولكنها كانت أقسى المرات. لم يفعل شيئاً. حاول أن يتذكر، قال لنفسه:

«هذا الرجل لا يعرفني، من قال له عني؟» فكر كثيراً ولم يستطع أن يتذكر. تذكّر جميع الناس الذين يعرفهم، ولم يتذكر أحداً!

لم تنقض أيام قليلة، حتى عاد صويلح إلى القبو مرة أخرى. ضربوه في القبو، كسروا له سنَّيْن، وتركوا آثاراً واضحة على وجهه وكتفه اليمنى، وبعد ثلاثة أيام استدعاه الضابط:

- إذا عجز الآخرون عن تعليمك فسوف أعلمك.

- ماذا تريد أن تعلمني يا ابن أخي؟

- سوف ترى بعينك.

- والله يا ابن أخي رأيت قبلك أناساً كثيرين، في نفس هذا المكان، وقالوا لي نفس الكلمات، لا أعرف ماذا تريدون مني!

- وأنت ماذا تريد من سيادة الوزير؟

- منه... لا أريد شيئاً، قلت له كلمتين، ولم يغضب، ولا أعرف لماذا غضبتم أنتم!

- إسمع يا صويلح. أنت بعمر والدي، لا أريد أن أهينك، أن أضربك، ولكن يبدو أنك تحب الإهانة، وتعودت عليها، ولا يطيب لك الآن إلا أن تهان. أليس هذا الذي تريده؟

- والله يا ابن أخي، لا أعرف عن أي شيء تتحدث..

- لماذا تطاولت في حضرة سيادة الوزير؟

- والله يا ابن أخي، لم أفعل شيئاً. قلت له كلمة الحق.

- ماذا قلت للوزير؟

- قلت له: يا سعادة الوزير.. أبو بكر الصديق قال الذي يرى فيّ اعوجاجاً فليقوّمه بالسيف، ونحن جماهير الفقراء نقول للحكومة نريد أرضاً نزرعها، ويجب أن تفعلوا شيئاً لكي لا نموت من الجوع. هذا ما قلته.. هل هذا الكلام يغضب أحداً؟

- لا.. لا.. لم تقل هذا فقط، قلت الحرية تؤخذ ولا تعطى، ونحن سنأخذ حقوقنا بأيدينا.

- إي والله، يا ابن أخي، قلت هذا الكلام.

- وماذا قال سيادة الرئيس؟

- الوزير قال كلام حلو.. لكن واحداً لا أعرفه صرخ فيّ، قال كيف تتجرأ أن تتكلم في حضرة الوزير..

- وأنت ماذا قلت؟

- والله يا ابن أخي نسيت.. .ألف قضية في رأسي.

- لهذه الدرجة رأسك مليء بالقضايا؟

- الوزير قال: انتهى عهد الظلم، والجميع سيكونون متساوين، وسوف يكون لكل واحد أرضٌ يزرعها.. هذا الكلام سمعناه كثيراً، كل الوزراء قالوه، ولكن لم يتحقق شيء!

- ماذا تقصد؟

- لا أقصد شيئاً يا ابن أخي!

- أليس عندك أرض؟

- عندي. . لكن الشيخ قال لي إذا عدت إلى هنا سوف أجعلك ذليلاً مثل كلب.

- لماذا يقف في وجهك؟

- والله يا ابن أخي لا أعرف. . يقول إني أحرّض الفلاحين، وإني أعلمهم، وأنا لا أفعل شيئاً.

- ومن تكلم مع الوزير؟

- أنا الذي تكلمت.

- مَن حرّضك؟

- لا أحد. . هل يجب أن يحرّضني أحد؟ أخذوا أرضي، وليس عندي الآن شيء، وتريدني أن أغلق فمي مثل حمار وأسكت؟

- ولماذا لم تقدم شكوى؟

- والله يا ابن أخي قدمت ألف شكوى، ولم يأت وزير إلى هنا إلا وذهبت إليه، قلت له كل شيء وكلهم قالوا. . بسيطة، سوف تعود إليك أرضك، وحتى الآن أنتظر، لقد مرت ثلاث سنوات لم أستطع خلالها أن أرجع إلى أرضي، وفي كل مرة أبعث لأبي منصور أخبره أني أريد العودة فيقول لي. . لن أكتفي هذه المرة بكسر يديك ورجليك، سوف أدفنك وأنت حي!

- وهل قدمت شكوى إلى الوزارة؟

- ألف شكوى يا ابن أخي.

- والنتيجة؟

- إذا وصلت أنت إلى نتيجة فأنا وصلت إلى نتيجة يا ابن أخي!

- أنت تكذب.

- أنا أكذب؟ بسيطة يا ابن أخي!

- أنت تحب الشغب، ليس لديك عمل إلا تحريض الناس على الشغب. أنت كسول تريد أن تبقى بدون عمل تعيش على حساب الناس، وكلما جاء وزير تحمل نفسك وتجيء وتخلق متاعب!

- والآن.. هل تسمح لي أن أمشي؟

- نريدك بضيافتنا.. أسبوع، أسبوعان، وبعدها نرسلك حيث يأمر الوزير أو أن نتركك.

- ليست أول مرة، يا ابن أخي!

وبعد شهر يخرج صويلح.. ولكن تنبيهات شديدة هذه المرة، تنصبّ على رأسه، يبلغه الضابط أن الاعتقال في المرات القادمة لن يكون لمدة أسبوع أو شهور، سيكون لمدة سنين، وقد لا يخرج من القبو نهائياً.. ويضحك صويلح وهو يودع الجنود والسجناء!

ولا تمر فترة حتى يستقبل القبو صويلح مرة أخرى. لقد تجرأ هذه المرة واصطحب معه عدداً من الفلاحين وذهب إلى

أرضه. أمسكوا به، ضربوه، ضربوه حتى لم يعد يستطيع القيام، وحمله بعض الفلاحين إلى جانب الطريق الرئيسي، وظل هناك من الغروب حتى ضحى اليوم التالي، حتى مرّت سيارة وحملته إلى المدينة.

ذهب إلى الضابط ليشكو... قالوا له أن يقدم عريضة.. ويذكر كل شيء.. وبعد ذلك ستأخذ الأمور مجراها.. وقدم العريضة، ولكن لم يتركوه يذهب، قالوا له يجب أن تنزل إلى القبو حتى تشفى جراحك، وفي القبو قال له أحد الأفندية يجب أن تتعلم القراءة والكتابة يا صويلح، وما إن يخرج، حتى اشترى كتاباً وبدأ يقرأ ويتعلم...كان الكتاب مجرد حروف.. وقد استعان ببعض الناس لكي يعلموه، وبدأ يخرج بعيداً عن المدينة، وبيده الكتاب، ولا يسمعه أحد إلا وهو يردد دون انقطاع حرفاً بعينه، لكي يحفظه.. فلما سمع بذلك الناس قالوا.. لقد جُنّ صويلح هذه المرة وانتهى. غداً لن ينزل إلى القبو مرة أخرى، ولن يعذب أبا منصور أو الشرطة.. وفي النهاية لم يتعلم شيئاً. وبعد أيام ترك صويلح الكتاب، وقال إن العمر أقصر من أن يصرفه الإنسان في تعلم حروف صماء لا تجدي شيئاً.

في هذه الفترة كان يبدو عليه الحزن، ضيق الصدر، وقد احتار فيما يجب أن يفعله؛ قال في نفسه لم أعد أقوى على أن أكون عتالاً أو ماسح أحذية، يجب أن أفعل شيئاً غير ذلك؛ وفكر أن الفلاحين أغبياء ويريدون أن يبقوا أغبياء.. وإلا لماذا

يتركونه وحيداً؟ وسمع بعض الناس يقول إن الإقطاعي أحسن من الحكومة ألف مرة، وإلا لماذا يأكل كل الوزراء عنده؟ ولا ينادونه إلا أبا منصور!

وفكر أن يرجع لأرضه ويفعل ما يطلب منه. لم يعد يريد أرضاً، يكفي أن يكون فلاحاً، وسوف ينسى كل الأشياء التي قالها له الأفندية، وقرر أن يحارب الحكومة!

لم يستطع أن يصبح عتالاً، ولم يستطع أن يكون ماسح أحذية.

ظل يحمل عباءته السوداء الخفيفة ويذهب إلى المطار لاستقبال الوزراء، وما تكاد تسنح له فرصة حتى يبدأ خطابه:

سعادة الوزير: نحن الجماهير الفقيرة نريد العدل، نريد أن تفعل الحكومة شيئاً من أجل الفقراء.

ويجب يا سعادة الوزير أن تتذكروا كلمات الخليفة العربي أبي بكر، من رأى فيّ عَوَجاً فليقوّمه بالسيف.

ونحن نقول إن الحرية تؤخذ ولا تعطى، والجماهير الفلاحية تحارب الإقطاع، وسوف تنتقم لنفسها. نحن جائعون يا سعادة الوزير. يجب أن تجوعوا حتى تعرفوا ألم الجياع. يجب أن تُضْرَبوا حتى تعرفوا معنى الضرب. يا سعادة الوزير، لو تجرب يوماً أن تنام في القبو يا سعادة الوزير. وأنت، ولكن أنت مثل الذين جاءوا إلى هنا من قبل. كلهم قالوا، سوف تعود الأرض وحتى اليوم لم يعد شيء.

يا سعادة الوزير. نحن نرحب بكم، ولكن يجب أن نقول لكم إن الجماهير الفقيرة فقيرة جداً، ويجب أن تعيش في أحسن حال، وسوف نقطع رؤوس الإقطاعين وننهب بيوتهم وأموالهم، سوف نقتلهم كلهم.. وسوف ترون بأعينكم!

ويستقبل القبو صويلح، ويقذف القبو صويلح.

ظلت حاله هكذا فترة من الزمن، حتى بلغ الخمسين. وفي هذه السنة قرر أن يتزوج، جمع من كل إنسان يعرفه مبلغاً من المال حتى أكمل النقد الذي طلبه والد العروس، وخلال شهرين تزوج صويلح، وذهب إلى الأرض وصالح الإقطاعي.. أراد أن يعيش فوق الأرض من جديد، وقد تخلى عن كل الأفكار المجنونة التي كانت تقذف به إلى القبو بين فترة وأخرى؛ ولكن لم تكد تمر شهور حتى بدأ يخاف من الذهاب إلى الحقل، وخوفه هذه المرة من العيون الشرهة التي تترصد الشابّة الفتيّة، التي كانت زوجته.. بدأ يخاف، وبدأ الإقطاعي يضربه، تحمّل الضرب أول الأمر وتحمّل الكلمات القاسية، ولكن في المرة العاشرة قرر أن يرحل إلى المدينة.

كان يفكر: «في المدينة يمكن أن تبقى في البيت، فلا أخاف عليها من أحد.. وفي المدينة يمكن أن أعمل عتالاً أو ماسح أحذية.. أما هنا فإنني سأعمل طوال السنة لكي أتنازل في النهاية عن كل شيء.. القمح وهذه الشقية الصغيرة».

وجاء صويلح إلى المدينة.. لم يستطع أن يعمل شيئاً أول الأمر؛ أخذ مبلغاً من صديق، وعاش فترة، ولكن سرعان ما

ذهبت الفلوس، وبدأ يفكر بالعودة إلى الأرض، وفكر بالسفر، وذات يوم وجد نفسه يفعل شيئاً لم يكن يريد أن يفعله!

ومن جديد توجه إلى القبو.. ولكن هذه المرة لأنه قاتل.. فقد قتل عبد الشيخ الذي وجده يقتحم بيته، يريد أن يصل إلى زوجته!

وفي القبو.. كان حزيناً يائساً، ولم يستطع أن يرد على كلمات الضابط، ولم يستطع أن يقول شيئاً للشرطي الذي ضربه وكسّر له بقية أسنانه!

مزحة



كان طويلاً ضعيفاً مثل قصبة فارغة، أما رقبته فكانت تشبه رقبة طائر ملون، بسمرتها القاسية من الأمام حتى فتحة الثوب، وبلونها الترابي النقي من الخلف، فالشمس لم تلوحها بذلك المزيج من القسوة والحدة، أما عيناه فكبيرتان ولا تفسد هذه الرحابة الأنيسة فيهما سوى أجفان ثقيلة تجعل حركة العين بطيئة.

كان الخوش موجوداً كفرد من أفراد العائلة، وإن ظلت ملابسه تختلف عن ملابس الفتيان في مثل سنه، فثوبه الفضفاض والعباءة المصنوعة من وبر الجمال التي يضعها على كتفيه الناحلتين جعلت منه في البداية، أقرب إلى فزاعة الزرع، وقد أثار منظره ضحكاً مكتوماً، اضطره بعد فترة، أن يتخلى عن العباءة؛ فأصبح بثوبه ومنديله الأبيض المرقط بالأحمر، ثم بالحذاء الذي يلبسه دون جوارب والذي يكشف جزءاً من الساق، مثيراً لسخرية الجوار، لم ينته إلا بعد أن تعودوا عليه مع الزمن، أما الرابطة التي كانت تربط الخوش بالحاج ابراهيم الراشد، فالقرابة البعيدة، ولكن أحداً لم يستطع أن يحددها

بدقة، كما أن الحاج لم يحدّث عنها، ونتيجة هذا الغموض، لم يكن وضع الخوش معروفاً ومحدداً في البيت، فهو ليس خادماً، لأنه ينام مع أولاد الحاج ويأكل نفس الأكل الذي يأكلون منه. وأما الأعمال التي يقوم بها فتجعله لا يختلف عن نوع معين من الخدم موجود في بيوت كثيرة تربطها بالبداوة صلة ما. كان يقوم بالأعمال الثقيلة، ويحمل الخضار التي يشتريها الحاج، ويسقي الحديقة، ويساعد الحمالين في الدكان أثناء النهار. أما إذا جاء الليل فيجلس في الديوان مع الرجال، يستمع إلى القصص ويصب القهوة، ولا يشارك إلا بمقدار ما يطلب منه.

فإذا انفضّ مجلس الرجال عاد الخوش متلهفاً، ليبدأ سهرة من نوع آخر مع أولاد الحاج الذين كانوا أصغر منه قليلاً، عشرات الألعاب، وكان الخوش ضحية في هذه الألعاب كلها، فإذا تعبوا، أو وصلتهم أصوات التهديد تأمرهم بالنوم، أطفأوا النور وشملت الدار سكينة متوترة، لا تنتهي، أغلب الأحيان إلا بالمقالب؛ تنزل على رأس الخوش. كانوا يضربونه بالوسائد، وكانوا يصبغون وجهه بالقهوة أو بصبغ الأحذية، ووضعوا له أكثر من مرة ورقة بين أصابع قدميه وأشعلوا فيها النار. أما المياه التي ترشقه في أقسى أيام البرد، فقد جعلته يغضب ويهدد بأن ينقل للحاج خبر هذه الإساءات، ولا تنتهي الأمور إلا بعد أن يعدوه أنها لن تتكرر مرة أخرى، ولكن لا تكاد ليلة أو اثنتان تنقضي حتى يدبروا مقلباً جديداً

يستعملون كل براعتهم في اختراعه وترتيبه.

كانت زوجة الحاج تعرف هذا كله، وعندما يصل الأذى درجة لا يحتملها الخوش، كان يشكو لها:

- يا عمتي.. الشياطين أمس حرقوا رجلي.. أنظري..

- غداً تنسى.

- ولكن يجب أن تفعلي شيئاً ياعمتي وإلا قتلوني!

وتقول بلهجة أقرب إلى المواساة والتأنيب:

- القط يحب خنّاقه. .لماذا لا تنام في الغرفة المجاورة؟

- أكثر من مرة نمت هناك وجاءوا عندي، أو جروني وأنا نائم!

- لو أنك ضربتهم لما فعلوا. .أنت تشجعهم!

- وأنتِ معهم يا عمتي؟

- لا. .لا. . أنت تعرف أن كل ما يفعلونه مزاحاً.

ويتلمس الخوش آثار الحرق ويهز رأسه، ويخاطب نفسه بصوت حزين:

«سوف أنام في الدكان، أو أهرب من البلد».

وتقول زوجة الحاج وقد ارتعشت من الكلمات الحزينة:

- بعد اليوم الولد الذي يمد يده عليك أكسرها.. وسوف أقول للحاج عنه.

وعندما يدرك الخوش أن الأمور قد تأخذ شكلاً خطراً، يرفع لها عينين راجيتين ويقول:

- لو تنبهي عليهم يا عمتي فقط.

- من عيني هذه، ومن عيني هذه.

وتشير إلى عينيها، واحدة بعد أخرى، وتقوم لتصرخ وتهدد بكلمات يعرفون أنها لا تعنيها.

ظلت الأمور تسير هكذا، فإذا تجاوزت حدوداً معينة، كان أولاد الحاج يجدون طريقة ترضي الخوش وتعيده وقد امتلأ فرحاً وثقة بأن كل شيء سيكون كما يريد.

لكن ما وقع في تلك الليلة من أمور غيّر كل شيء:

فبعد أن ولدت القطة ببضعة أيام، وقع حجر على رأس قط صغير فقتله؛ ما إن ترك الأولاد الخوش يذهب إلى الغرفة المجاورة ويستغرق في النوم حتى بدأوا بتنفيذ خطتهم الجهنمية. قذف الأولاد بالقط الميت ودفعوا أمه وراءه. أغلقوا الباب وابتعدوا.

أصابت حالة من الجنون القطة الأم، إذ بدأت تقفز في الظلمة وتمزق الخوش، إلى أن أدمت وجهه في عدة مواضع، فقام مذعوراً يصرخ ويترنح والدماء تنزف، ولا يعرف أي لعنة أصابته، وما كاد يصل الباب ويفتحه حتى بدا بحالة من الخوف والإعياء لدرجة أن جميع من في البيت قام على صراخه.

كان منظراً رهيباً: الدماء تنزف من وجه الخوش، والقطة ما تزال تقفز تريد أن تنهشه وتمزقه، والحاج وزوجته يركضان مذعورين؛ أما الأولاد، فقد استولى عليهم الخوف وظلوا في

الظلمة ينظرون صامتين يترقبون نهاية ما، لهذه المزحة التي ولّدت كل ذلك الرعب والخطر.

في صباح اليوم التالي، كان الخوش قد اتخذ قراراً خطيراً، أبلغ الحاج أنه سيسافر، وكل المحاولات التي بذلت لإقناعه بالبقاء بضعة أيام، حتى تشفى جراحه فقط، كادت تفشل، لولا أن فكرة مجنونة طرأت على رأس محمد، أوسط أولاد الحاج وأكثرهم قدرة على إيجاد الوسيلة التي تجعل كل شيء ممكناً.

فما كادت العاصفة تهدأ قليلاً، حتى اقترب محمد من الخوش، وقد ظهرت على وجهه علامات الأسى وكادت الدموع تنفر من عينيه وهو يقول له:

- يجب أن تكتب لنا إذا سافرت.

ويظل الخوش صامتاً لا يجيب، وينظر إليه محمد ويتابع:

- ماذا أقول لمريم إذا سألتني عنك؟

وينظر الخوش نظرة تمتزج فيها الدهشة برغبة السؤال، ولكنه يظل صامتاً وإن بدأ يغير وضع جلسته.

ويتابع محمد، لكي يحكم المؤامرة:

- مريم بنت الجيران، سألتني عنك مائة مرة.

وينظر الخوش هذه المرة نظرة خائفة مستطلعة، وقد انفجرت فيه رغبة السؤال:

- مريم.. الطويلة؟

- مريم الطويلة!

- وماذا سألت؟

- سألتني مرات كثيرة عنك!

- ماذا قالت؟

- ولكن سأقول لها الآن إنك سافرت.

- وماذا سألت؟ ماذا تريد مني؟

ولم يجب محمد. نظر إليه بطريقة أفهمه أنه يمتلك شيئاً أكبر من هذه الكلمات.

وعندما جاءت زوجة الحاج تحاول إقناع الخوش من جديد، لم تجد صعوبة. قال لها: سأبقى بضعة أيام حتى تشفى الجراح فقط، وسأسافر بعد ذلك.

* * *

منذ ذلك اليوم تغيرت حياة الخوش. لم يعد يقبل أن يكون فتى صغيراً، انتهت المقالب وبدأت تنتهي معها آثار الجراح من وجهه، وأصبح يقضي فترة طويلة في الحديقة، يتسلق الأشجار، ويقتلع الأعشاب وأصبحت علاقته الغامضة بمحمد تثير شكوك الإخوة وتساؤلاتهم؛ ومحمد لا يتحدث عن ذلك إلا بمقدار قليل، ويؤكد أن الخوش لن يسافر.

بدأ الخوش يحب مريم. كان ينتظر ظهورها بلهفة، وعيناه لا تفارقان البيت، ثم أخذ يقضي الليل ساهراً يفكر، وأصبحت الأمور تقلقه وتعذبه. لم يكن يعرف كيف يتصرف، وماذا عليه

أن يعمل، حتى إذا احترق قلبه بهذا الحب، لم يجد إلا محمداً. . يستعين به من جديد.

- وهل سألت عني يا محمد؟

- كل يوم تسألني!

- وماذا تسال؟

- تسأل عن صحتك، وتضحك!

- وماذا أيضاً؟

- تقول إنك قوي، تحمل ثلاثة أرطال بيد واحدة!

- وماذا تقول أيضاً؟

- تقول سلم على الخوش.

- وأنت ماذا قلت لها؟

- قلت لها إن الخوش يستطيع أن يتسلق شجرة النخل بدقيقة واحدة، ويستطيع أن يحمل رجلاً أثقل منه!

- وهل قلت لها شيئاً آخر؟

- ماذا تريدني أن أقول لها؟

- ألم تقل لها إن الخوش يسلم عليك؟

- لم أقل لها.

وبعد صمت قاس معذب، يسأله:

- هل تريدني أن أقول لها شيئاً؟

ويتردد الخوش، لا يعرف هل يقول له عن العذاب الذي

يلاقيه، الأحلام التي تزحم فكره كل ليلة! ويطول الصمت، ويستدرجه محمد من جديد:

- هل تريدني أن أسلّم عليها؟ أن أقول لها شيئاً؟

- قل لها الخوش يسلم عليك.

- وأي شيء آخر؟

- بعد أن تقول ذلك سوف نرى.

ويسهر الخوش، يقضي وقتاً طويلاً في الحديقة، ينزل إلى الشارع، يتعمد أن يأتي في ساعات مختلفة من الدكان إلى البيت تذرعاً بأسباب واهية، لكي يرى مريم.. كان يريد أن يراها فقط ولو من بعيد. لم يفكر لحظة واحدة في أن يكلمها، أو أن يقترب منها، كان يكفيه أن يحس بوجودها، أن يسمع عنها شيئاً..

ومحمد يتابع اللعبة، والخوش الذي حاول أن يصد الأولاد بعد تلك الليلة، بدأ يتقبل مزحهم من جديد، ولكن دون أن ينسى مريم لحظة واحدة، ودون أن يشغله شيء عنها.

ذات يوم، كان الخوش قد احترق بصمت من حبه، فكر أن يفعل شيئاً، اندفع إلى زوجة الحاج.

كان يغرق بعرقه وخجله، لا يعرف كيف يبدأ الحديث، وبعد أن تحدث في أمور كثيرة، لا رابط بينها، قال بنبرة أسى موجع:

- عمتي.. أريد منك شغلة.

وتطلعت إليه زوجة الحاج باستغراب، فهي لا تتذكره يتكلم بمثل هذه اللهجة إلا في لحظات العذاب. سألته وقد خافت:

- ماذا تريد..؟

- عمتي، بنت الجيران!

ولم يستطع أن يتابع. كان وجهه قد تغير تماماً. ولهجته تحولت إلى جرس مشروخ.

وبهدوء هذه المرة، وقد التقطت زوجة الحاج الخيط، سألته بطريقة توحي بالثقة:

- ما لها بنت الجيران ياخوش؟

- أحبها ياعمتي.. أحبها، وأريد أن أتزوجها.

- أي بنت؟

- مريم يا عمتي، مريم.

كاد أن يبكي وهو يردد اسمها، وظل ينظر إلى زوجة الحاج نظرة تمتزج فيها رغبة أن يقبّل يديها، أن يهزها من كتفها، أن يرفعها بين يديه لكي تفعل شيئاً، وامتلأت الغرفة بصمت مشحون بالخطر.

كانت زوجة الحاج تعرف أن مريم صغيرة، وأن لها أختين أكبر منها، وتعرف أن جارهم راضي المسعود لا يمكن أن يعطي ابنته لرجل مثل الخوش، ليس لديه شيء، ولا يتعدى كونه بدوياً مجهول الهوية والمصير. وتعرف أن الحاج لا يمكن أن يتدخل في أمر من هذا النوع.

مرت هذه الأفكار في رأسها، ومرت أفكار أخرى، والخوش يتطلع إليها بحزن وتوسل. إن أية كلمة تقولها يمكن أن تقرر مصيره، يمكن أن تنقذه أو تقتله.

نظرت إليه بأسى وسألت:

- منذ متى وأنت تحبها؟

- منذ تلك الليلة يا عمتي.

- أية ليلة؟

- ليلة القطة.. ولم أسافر من أجلها!

- وهل قلت لها شيئاً؟ هل تحدثت معها؟

- لا.. ولكن بعثت لها سلامات كثيرة.

- وماذا ردت عليك؟

- ردت أنها تحبني وتسلم عليّ.

- ومن قال لك ذلك؟

- أولاد الخير.

- ولكن قل لي كي أعرف كل شيء، وأساعدك.

- عمتي أنت تستطيعين أن تفعلي كل شيء.. أقبل يديك.

- ولكن قل لي.

ولم تستطع زوجة الحاج أن تنتزع منه كلمة. اعتبر ذلك سراً لا يمكن أن يبوح به لأحد. وعبرت خياله في تلك

اللحظات أطياف لا تنتهي من الفرح والقوة، فكر أن يصعد إلى أعلى نخلة، أن يحمل عجلاً بيد واحدة، فكر أن يركب ناقة ويضع مريم وراءه، فكر أن يفعل شيئاً خارقاً لكي يثبت لزوجة الحاج أنه جدير بمريم.

* * *

بعد أيام قليلة كان الخوش يبدأ رحلة جديدة. انتزع عباءة الوبر ووضعها على كتفيه، ورمى الحذاء الأسود الذي كان يلبسه، واستبدل به خفاً، واشترى عصا رفيعة بعد أن لم يجد عصاه القديمة.

ولما ودع الجميع، لم ينس أن يسحب محمداً على جهة ويقول له بصوت هامس حزين:

- لا تنس أن تسلم على مريم.

وسافر..

أما كيف أخذت الأمور هذه الوجهة، فإن الجميع يتذكر ذلك بدقة. فبعد أن عرف الحاج بالخبر تلك الليلة، هز رأسه وكتفيه دلالة الاستغراب، وبعد صمت طويل، قال لزوجته وهو يقلب شفتيه:

- حاولي، يا بنت الحلال. إذهبي غداً لأمها، واسألي إن كانوا يقبلون.

وبصوت حزين يائس، أضاف كأنه يكلم نفسه:

- ولكني أعرف راضي. . وأنا غير مستعد أن أذل نفسي لأحد!

وانتهت الأمور بسرعة. رجعت زوجة الحاج عند الظهر بعد أن زارت بيت راضي، وبكلمات بطيئة متألمة، قالت للخوش الذي لم يغادر البيت ذلك اليوم:

- مثل ما قلت لك يا ولدي. .

- ولكن ماذا قالوا لك يا عمتي؟

- لم يقولوا شيئاً كثيراً. . والنساء يفهمن بالإشارة.

- وماذا قالوا؟

- قالوا إنهم لا يفكرون بزواج البنات الآن.

- ومريم. . ألم تقل شيئاً؟

- لم أرها يا ولدي، قالت الأم إن ابن عمتها جاء قبل فترة ليخطب البنت الكبيرة، والأب لم يوافق!

- ومريم. . هل سألتها شيئاً عن مريم؟

- لماذا تريدني أن أسألها إذا كانت لا تريد أن تزوج الكبيرة؟

- ولكن أنا أحب مريم يا عمتي. . وقد بعثت إليّ مرات كثيرة تسلم عليّ.

- وماذا يفيد ذلك إذا كانوا لا يزوجونها!

- ولكنك لم تسألي عن ذلك يا عمتي.

- . . أنا أعرف كل شيء يا ولدي!

هكذا انتهت الأمور.

في اليوم التالي كان الخوش قد بدأ رحلته الجديدة باتجاه جديد وقد قرر أن ينسى كل شيء، وأن لا يعود.

* * *

بعد شهرين جاء خبر صغير للحاج، لم يشأ في البداية أن يطلع عليه أحد. لكن ما إن انقضت فترة قصيرة حتى انكشف كل شيء.

فبعد أن سافر الخوش برعية جمّال، تاه عن الجماعة التي كان معها ونفد ماؤه، فذهب ليبحث عن بئر أو عرب ليشرب، وقال الذين نقلوا الخبر إنهم وجدوا الخوش على بعد أمتار قليلة من الماء. . ميتاً!

الباب المفتوح



... آخر شيء قررت أن أفعله، قبل السفر، وداع جدتي.

عند الظهر كنت أطل على غسرين، البلدة الصغيرة في بطن الوادي. بدت لي غريبة، منفِّرة بأشجارها الطويلة العارية وبيوتها المتراصة القديمة في الوسط، أو تلك المتباعدة على أطراف التلال الغربية. الريح تعبر الشوارع بخشونة فتولد رعشة هي بين البرودة والخوف، حتى النهر الصغير، وأنا أعبر الجسر، بدا لي مختلفاً عن السابق.

لم أشأ أن أتطلع كثيراً إلى الوجوه. كنت أحمل تحت إبطي هدية صغيرة، أردت أن أتركها لجدتي كذكرى أخيرة. كان ينتابني شعور أني لن أراها بعد هذه المرة. فإذا رجعت من سفرتي المجنونة ستكون قد رحلت عن هذه الدنيا. لقد كبرت جدتي كثيراً في السنين الأخيرة، وأصبحت تكبر كل يوم، مشيتها ثقيلة متعبة، التغضّنات في وجهها مثل خطوط فدان يحرث أرضاً هشة، حتى العصا التي كانت تستعملها في الماضي غواية، تحولت إلى رجل ثالثة لا تفارقها أبداً.

قلت لنفسي وأنا أعبر الزقاق الذي يربض بيت جدي في نهايته: «لن أتركها تتحدث هذه الليلة عن الذكريات، سوف أغرقها بالحديث عن الشجر والحيوانات والأمطار، وسوف أدّعي النعاس في وقت مبكر، حتى إذا جاء الصباح تحملت كل الكلمات الحزينة وهربت بسرعة.»

الأولاد في الزقاق يعبثون بالأتربة ويلاحقون الكلاب والقطط، النساء مثلما كن دائماً على أبواب البيوت.

سحبت نظراتي بسرعة لكي لا أترك لأحدٍ وقتاً ليتذكر، ويستوقفني، النساء يحلو لهنّ أن يتذكرن الأشياء الحزينة. قلت في نفسي: «لا أريد مزيداً من الحزن» وتذكرت حكاية الأشجار المكررة ودون معنى والتي تشبه رثاء النفس، كانت هذه الكلمات تخلق في أعماقي نرفزة أقرب إلى العناد، قلت وأنا أطرد الأفكار الحزينة: «سيموت الجميع، ستموت جدتي مثلما مات جدي ومثلما مات خالي... والحزن عادة يذكّر بالموت بشكل ما، وأنا لا أريد الحزن ولا أريد لجدتي أن تموت الآن.»

ألقيت التحية، بسرعة، على امرأتين كانتا صديقتَيْ أمي، دون أن أترك لهما فرصة للكلام وتابعت. كنت أعرف أن النظرات تلاحقني. جعلت خطواتي ثابتة وسريعة، لم أعد أهتم كثيراً بما يقال عني، لست متكبراً، ولا أحب الرجال المغرورين، لكن ليس لدي شيء أقوله. الناس هذه الأيام تشغلهم أفكار سوداء، أقلها البحث عن الطعام، وأنا الآن أسافر

بحثاً عن الطعام، لقد حالفني الحظ كثيراً. فحصوا الأوراق، أجروا المقابلة، سألوني أسئلة فجة، وانتهى الأمر، قالوا: «السفر يوم الأربعاء».

البلدة الآن ليست هي البلدة التي عشت فيها تلك الأصياف الرائعة البعيدة. أحس أنها تغيرت كثيراً. تغيرت من الداخل. صحيح أن الأماكن التي أعرفها ما تزال مثلما تركتها قبل عشر سنين، لكنها هرمت، تغضنت من الريح والموت، أصابها ما يشبه الدوار من فرط ما رأت وسمعت، ومع ذلك لا تزال تقف بشموخ أبله بانتظار كوارث جديدة.

قلت لنفسي بأسى: «الأماكن مثل الإنسان تتغير كثيراً». وفكرت: الإنسان هو الذي يتغير، الأماكن لا تتغير إلا ببطء أخرس، تنجرد من الداخل، تفرغ، تصبح مثل قصبة فارغة، ثم تنهار دفعة واحدة، الإنسان لا يفعل ذلك. الإنسان تقرضه دودة اسمها الحزن، وهذه الدودة سوداء، ولها أثداء صغيرة لا ترى بالعين، لكن في الليل تكبر هذه الدودة حتى تصبح مثل حوت رمادي يجثم فوق الصدر. قلت في نفسي وأنا أضرب حجراً صغيراً أمامي: «الدودة التي قتلت الآخرين ستقتلني، وإذا قررت أن أترك جدتي والذكريات، فيجب عليّ قبل ذلك أن أنسى حكاية الدودة اللئيمة».

بيت جدي في نهاية الزقاق بدا لي لفرط ما تغير أني لا أعرفه. قلت لنفسي بنزق: تغير ولم يتغير. أنا الذي تغيرت.

تمعّنت به أكثر، فبدا أنه لا زال بنفس الارتفاع، أما السور المحيط بالبستان فقد سقطت حجارته من الناحية الشمالية. أرى الدجاج يعبث بأقدامه القذرة قريباً من السور وداخل البستان. شجرة الجوز القريبة من الباب عارية تماماً مثل شتاء قاسٍ.

قلت لنفسي وأنا أتذكر: «هل هي نفس الشجرة التي كانت في ذلك الصيف أرجوحة وعشّاً للعصافير؟» وفكرت وأنا أقترب: «يجب أن يكون دائماً في البيت رجل لكي يقوّي سور البيت الخارجي ويدحل السطح. والمرأة، حتى لو كانت جدتي، لا يمكن أن تفعل كل شيء».

الباب يترنّح. الريح بهبات صغيرة تحركه دون تعب. نفس الباب الذي دخلت منه آلاف المرات. هل تتعب الأبواب من الحركة؟ من البقاء في مكانها؟ وتصورت «جدتي في الداخل، وإلا لماذا تركت الباب مفتوحاً؟» وبدأت تغزوني ملامحها: قامة قصيرة ضامرة، عينان واسعتان تتحركان ببطء وكأن الأفكار التي تشتعل في رأسها لا تترك لها وقتاً لكي تحرك عينيها، الشفاه مطبقة بحزم لايملكه إلا الناس القساة اليائسون. واليدان معروقتان، معروقتان لدرجة أن من ينظر إليهما يظن أنهما مقلوبتان؛ العروق نافرة، زرقاء، العظام واضحة محددة كأنها مغطاة بنخالة هشة. والأنف حاد صغير يتحرك حركات لاإرادية مثل حركة الباب المفتوح.

كانت جدتي إذا رأتني تنظر إليّ بهدوء. لن تفعل مثل باقي النساء، حتى إذا تأكدت مَن أنا، ضربت الأرض بعصاها

وقامت مثل قطة تنفض عن نفسها الذكريات والأفكار، وتستعيد بذكرياتها فكرة تعذبها.

ظللت أسمع من جدتي نفس الكلمات والآن وأنا أتذكرها تثير في نفسي أفكاراً لا أحبها. كانت تقول: «يجب أن لا تكبر بسرعة. الذين يكبرون بسرعة يذهبون بسرعة» وتعانقني بعصبية. أشم في ثيابها وأنفاسها رائحة ما من الماضي؟ من الأحلام؟ رغبة غامضة بالحزن؟ لا أعرف. كانت تشدني إليها لفترة طويلة، وكلما حاولت أن أفلت منها أجد راحة يدها، وراء ظهري، مثل محراث ينغرز. لم أكن أقاوم، كنت أستسلم كثيراً وأنا أفكر «يجب أن يكون لهذه العجوز شيء تتعلق به، بعد أن ذهبوا». إذا انتهى العناق، ينتهي ببطء، ولا أكاد أتطلع إلى وجهها حتى أجد بقايا دمعة صغيرة تعرف جيداً كيف تمسحها أو تخفيها.

ومن أجل أن أمتص حزن جدتي كنت أقول كلمات كبيرة، أتذكر أنني قلت لها ذات مرة: «ألا تعرفين غير الحزن جسراً لمحبتي؟» نظرت إليّ وهي تسمع كلمات فجة تخرج من بين شفتي، نظرت طويلاً ورددت نفس الكلمات: «يجب ألا تكبر مثلهم، لقد كبروا بسرعة وذهبوا بسرعة، وأنت لا أحب أن أتذكرك إلا صغيراً، أتسمع، صغيراً، مثلما كنت وأنت لا تعرف الكلام» ويحاول كلانا بجهد، تظهر آثاره بسرعة، أن نخلق جواً جديداً. تبدأ تسألني نفس الأسئلة: «هل أنت تعب؟ هل أنت جائع؟» وأهز رأسي بالنفي، تتطلع إليَّ وتسألني بلهجة

جديدة قاسية: «لماذا تبدو هكذا شاحباً؟» وأردد نفس الكلمات «السفر، الدراسة، ولا شيء يا جدتي، غداً أستعيد نشاطي وترين بعينك».

الباب يئن وأنا أتقدم. خطوات وأراها. سوف تكون جالسة على المصطبة مقابل الباب، أو في الغرفة الوسطى تدخن. ستدق الباب بعصاها وتنهض، كبرت هذه المرة. ستكون خطواتها بطيئة. أتذكر آخر مرة جاءت فيها إلى المدينة... كانت هرمة. رأيتها تكبر سنوات خلال الأيام الأربعة التي قضتها عندنا، وبعد تلك الأيام رفضت بإصرار أن تبقى. صرخت في وجه أبي بحدة: «أتريد أن تقتل كل شيء؟ العجوز والحيوانات والأشجار.. دعوني أرجع، إذا بقيت هنا يوماً واحد متّ». ولم يستطع أحد أن يقف في وجهها، ذهبت محاولات أمي عبثاً، أما خالاتي فقد حاولن الكثير. قدمن لها وعوداً مغرية، رفضتها كلها؛ وعندما كنت أوصي السائق أن يوصلها إلى بيت جدي في القرية، مالت عليّ وقالت بهدوء أزعجني: «لا تكبر.. أنت بالذات يجب ألا تكبر»

لما وضعت قدمي على العتبة، ارتد الباب كأنه يريد أن يمنعني. دفعته ودخلت. نظرت تحت الدالية لم أجد جدتي.. كانت الغرفة الوسطى ببابها المفتوح تشتبك فيها الظلمة الخفيفة ببقايا الماضي.. تمهلت، أردت أن أترك لها فرحة اكتشافي، تنحنحت مثلما يفعل الرجال، ونظرت. بيت جدي: الغرف الأربع، غرفة خالي إلى اليسار، ثم غرفة داخلية وراء سور عالٍ

دون سقف ثم الغرفتان ناحية اليمين، وقريباً من شباك غرفة خالي البئر. . ثم في الوسط أحواض الزرع، داليتان وشجرة كرز. ومقابل البئر، في الناحية الثانية، قن كبير عالٍ للدجاج، وآخر أصغر منه للأرانب.

لم يتحرك سوى صوت الريح يعبث ببقايا زهور الخريف في الحوض المستطيل على طول الممر الترابي حتى الغرف، والباب ورائي يئن بصوت أجش ملعون. تركت نفسي أمشي. إن خطواتي تنبه جدتي. وظلي يتقدمني ولا بد أن تراه إذا لم تشأ أن تسمع صوتي. باب الغرفة الوسطى مفتوح، وغليون جدتي في مكانه، أما الفراش فقد رُصّ في صدر الغرفة ناحية اليمين. . تقدمت كثيراً حتى أصبحت لا أطيق هذا التجاهل. صرخت بصوت حاولت أن أحمّله المرح والتخويف «جاء الغول. . أين أنت ياجدتي؟. .» ودون أن أتوقف تابعت أقول لها «أين أنت مختبئة؟» ولم أسمع جواباً. . دخلت الغرفة، فلم أجد أحداً؛ ذهبت إلى الغرف المجاورة أفتش فلم أجد أحداً. فكرت أن أقتحم غرفة خالي، لكن الفكرة ارتسمت في ذاكرتي على شكل لم أستطع أن أحتمله. تركتها. ذهبت إلى كل مكان يمكن أن أجدها، لكن لم تكن هناك. اقتربت من البئر، جلست على حافته، نظرت إلى غرفة خالي، كانت ستارة بيضاء تتدلى على الشباك بشكل مائل، تتيح لمن يريد النظر أن يرى كل شيء.

من مكاني نظرت وأنا أحدد بعيوني، لعلي أرى شبح

جدتي، لكن صوت الريح والعتمة الخفيفة بداخل الغرفة لم تتيحا لي رؤية شيء!

وضعت يدي على مقبض الباب وأدرته. حتى تلك اللحظة كنت أظن أن جدتي لن تترك هذه الغرفة مفتوحة. إن في كل بيت غرفة بمثابة كعبة البيت. وغرفة خالي هي الكعبة، لا يمكن أن تترك دون حماية كافية. لا يجوز أن يدخلها أحد. كانت دائماً سرية وغامضة.

كانت سرية وغامضة منذ وقت طويل. منذ كنا صغار، «لا تقتربوا، إنه يقرأ. إنه ينام. لا تزعجوه». وعندما كبرنا «لا تقتربوا لم ينم طوال الليل، دعوه الآن ينام ساعة أو ساعتين، أخذ دواء كي ينام، والنوم لا يأتيه».

ودخلت الغرفة في نطاق الأماكن المخيفة.

«كيف تترك جدتي هذه الغرفة دون أن تقفلها؟» هكذا سألت نفسي وأنا أدخل الغرفة. كانت نظيفة لدرجة لا أتصور أن في البلدة كلها غرفة بنظافتها. الجدران بيضاء على زرقة، وعلى الجدران صور لخيول ولاعب كرة وجياد، ثم مجموعة من الصور الصغيرة المتقاربة: طيور ونساء ورجل يضع رأسه بين راحتيه ويفكر. أما السرير فقد كان هابطاً في منتصفه آخذاً شكل الجسد، والأغطية في نهايتها مقلوبة لكي تتيح سهولة مغرية لمن يريد أن ينام. . أما الطاولة، تحت الشباك، فقد وضعت فوقها مجموعة من الكتب وفرشاة ملابس ومشط ومرآة دائرية صغيرة، في قسم منها حال الطلاء فبدت مغبشة.

وماذا في الغرفة؟ نظرت أريد أن أكتشف. وجدت أشياء أخرى تجعل منها غرفة تشبه غيرها: مقعد طويل، يمكن أن يكون سريراً ومقعداً في نفس الوقت، وكرسيان ومنافض سكائر وحزمة من القمح موضوعة في آنية فخارية.

إن شيئاً في الغرفة لا تراه العين. لكنه موجود أكثر من أي شيء آخر. إن فيها دفئاً، وجوداً حاضراً، آثار دخان سجائر، أنفاساً. . لم أستطع أن أميز هذا الشيء، ولكن أحسسته بكثافته وثقله. وكأن أحداً غادرها منذ لحظة، وسوف يعود في اللحظة التالية.

مثلما قدرت. . فإن النساء يتميزن بحاستين اثنتين: الحزن وحب الفضول. إذ لم أكد أستقر لحظات، وأنا أحاول أن أكتشف غرفة خالي حتى سمعت دقات عصا جدتي تضرب الأرض. جلست على كرسي، قريباً من النافذة، وبدأت أنظر إليها وهي تتقدم.

كانت هرمة لدرجة أنها كبرت عشرات السنين منذ رأيتها قبل أربعة شهور في المدينة. خطواتها سريعة لكن متعثرة. أما رأسها فكان يدور مثل من يسبح ويحاول أن يستنشق هواء كي لا يموت ولا يغرق. . . تركت كل الغرف وتوجهت إلى غرفة خالي. كأنها أحست أني هناك. وبنفس الهدوء الذي تعودته منذ سنين طويلة فتحت الباب لكي لا تزعج أحداً ودخلت.

لقد ارتكبت إساءة لا أغفرها لنفسي أبداً، إذ ما كادت تراني حتى رمت عصاها، كمن فقد الأمل نهائياً وانهارت على

الأرض تبكي. امتلأت بالندم. وأحسست أن خطأً ما يحاصرنا. حاولت أن أنهضها، ولكن محاولاتي تمزقت وأنا أسمع بكاءها هكذا.

إنها المرة الأولى التي أراها تبكي هكذا... المرات السابقة كنت أرى دموعها، أما هذه المرة فقد رأيت شيئاً أكبر من الدموع. كان يأساً أقرب إلى النهاية.

بعد فترة، بدت لي طويلة، جاءت بعض النسوة. قامت جدتي حزينة متعبة. غسلت وجهها وابتسمت أو حاولت الابتسام، وأنا أتظاهر بالبساطة، فأتكلم عن خالاتي والمدينة، وأسأل النساء عن البلدة والأمطار... وجدتي لا تتكلم أبداً. تنظر إليّ بين فترة وأخرى نظرات فيها سؤال حائر أراه يتموج بين عينيها ورأسها الذي يدور بحركة آلية عابثة.

في الليل، حاولت أن أخفّف من الآلام التي أنزلتها بجدتي. قلت لها: «يجب أن ترحلي إلى المدينة، لأن بقاءك في هذا البيت اللعين يتلف أعصابك». وبابتسامة فيها تحدٍّ وسخرية لم تجب، نظرت إليّ ولم تجب. كنت أعرف أن كلماتي تذوب في الهواء قبل أن تستقر في ذاكرتها. وكنت أعرف أن كلمات مثل هذه قيلت لها مرات كثيرة، لكن لم تنفع، بل وبدت غاضبة في أكثر الأحيان!

قالت جدتي، وهي تحثني أن آكل: «يجب أن لا تكبر... وكأني رأيتك اليوم أكبر مما تعودت أن أراك».

قلت وأنا أطلب منها أن تشاركني الأكل:

- «يجب أن تأكلي، لا تخافي عليّ ما زلت صغيراً يا جدتي. . . العمر ما زال في أوله» ودون أن أنتظر نهضت وانتزعت من وسط الفراش الشال الذي خبأته. كنت أريد أن أفاجئها. فردته، ثم جعلته على شكل مثلث، ألقيت طرفيه على كتفيها، وتركت رأسه يسقط فوق ظهرها.

كان شالاً أسود مطرزاً بخيوط فضية هادئة. نظرت إليه بسرعة، ثم نظرت إليّ. كان في عينيها تساؤل أقرب إلى الغضب، وكأنها توبخني. قلت وقد استولى عليّ الارتباك:

- «لقد أرسلته أمي. . . هل أخطأت بإرساله؟»

ومن جديد نظرت إليه، تلمست طرفه بأصابعها الجافة المعروقة، ثم جرتني وقبلتني على خدي قبلة لم تكن بحرارة قبلتها السابقة ولا بالطريقة التي تعودتها منها. وساد صمت، كنت أسمع أفكار جدتي تحوم فوق رأسي هادرة مؤنبة. . . على الإسراف، وربما على اللاجدوى في مثل هذه الأشياء نحملها إليها من المدينة، وهي لا تحتاج إليها.

لم أستطع حتى هذه اللحظة أن أقول لها شيئاً عن السفر. تصورت أن كلمة واحدة يمكن أن تؤدي إلى قتلها، فإذا لم تقتلها فربما جعلتها معذبة أكثر مما تطيق.

قبل أن أنام، ومثلما قررت أن لا أخوض بأحاديث من ذلك النوع الذي يسبب لجدتي ألماً، ارتمت فوق الفراش، قريباً من وسادتي، وقالت وهي تمر بيدها المعروقة فوق شعري:

- رأيتك اليوم كبيراً لدرجة سببت لي ألماً.

- وهل هذا الذي أبكاك يا جدتي عندما رأيتني؟

- هو وغيره.

- أنا حزين لبكائك. لو كنت أتصور أن مجيئي يسبب مثل هذا الألم لما جئت.

- لقد تعودت. . . يا ولدي، وأنت سوف تتعود.

- إذن لماذا بكيت هكذا؟

- بكيت لأنني لم أجده. . . ظننتك. . !

ولم تستطع أن تضيف كلمة واحدة. انزلقت من عينيها الدموع بسرعة وغزارة، لكن دون صوت، حتى أني فرحت كثيراً لهذا الحديث الذي أردته نهاية لحزنها، وإذا به يجدده مرة أخرى.

بعد فترة صمت قاسية، مسحت عينيها بأكمامها، قالت بصوت فيه بقايا دموع:

- لو عرفت أنك أنت الذي آتى، لكنت الآن مسرورة، لكن النساء وهن يطلبن مني أن أسرع إلى البيت، لم يقلن لي من الذي أتى.

وببلاهة قلت لها لأخفف عنها:

- ألم تكوني تنتظرين مجيئي؟

- قلت لي إنك ستأتي. . . لكن هؤلاء النساء اللعينات.

- وهل قلن لك شيئاً آخر؟

- آه لو أنهن قلن أي شيء... لكن صرخن: أركضي أيتها العجوز... أركضي، فإن في البيت ضيفاً عزيزاً... لقد تركنني أفكر وأذهب بعيداً.

- ولكن كنت تنتظرين غيري؟... يا جدتي!

- يجب أن تنام الآن... أما أنا فعليّ أن أعجن... ألا تنام الآن!

وفكرت وأنا أرى عينيها الكبيرتين لا تستقران على شيء، فكرت كثيراً، وتاه فكري وأحسست أن في الأمر سراً، وإلا لما تصرفت جدتي بهذا الشكل.

تركتها تقوم. ذهبت وعادت أكثر من مرة، وهي تحمل الدقيق، وهي تحمل الماء، ولما استقرت على فراش صغير تريد أن تبدأ العجين قلت لها:

- جدتي... ماذا لو سافرت؟

استدارت نحوي تريد أن تنظر في عيني لتقرأ فيها أفكاري، قبل أن تجيب. لم أستطع أن أنظر إليها. كانت عيناها حادتين مثل مسامير ملتهبة، وشفاهها مطبقة بحزم أقرب إلى الاحتقار. ولما أبعدت عيني لأهرب منها، ندت عنها صرخة حادة:

- أنظر إليّ!

وبتسليم طفل مذنب نظرت إليها.

- كبرت أكثر مما ينبغي. وبعد فترة صمت قصيرة

أضافت... يجب أن تبقى صغيراً، وتابعت تخاطب نفسها بلهجة عتاب قاسية: لن أتركك تكبر أكثر من ذلك.

أجبت وقد حمّلت كلماتي المتسائلة شيئاً من الدعابة لأخفف عنها:

- جدتي... لن تكون سفرتي طويلة، وسوف أحمل لك هدايا كثيرة!

- أسكت... يجب أن تنام الآن.

- لا أطيق النوم... وأريد قبل أن أسافر أن ترضي عليّ وتوافقي على سفري!

قامت بهدوء. لم تفكر أن تستعمل عصاها، قفزت مثل إنسان يمشي على رمل ساخن وما كادت تصل أول الفراش حتى أمسكت برجليّ تريد أن تستعين بهما حتى تصل إليّ.

اعتدلت وأعطيتها يدي، لما أمسكت بهما ضغطت عليهما وهي تقول:

- لا أعطي رضاي... ولا أريدك أن تسافر.

- ولكني لن أغيب طويلاً، وسوف أبعث بالرسائل، وأعود بسرعة.

- المسافرون لا يعودون، وإذا عادوا فبعد وقت طويل.

- ولكني سأعود يا جدتي.

- أتعرف لماذا بكيت عندما رأيتك اليوم؟

- لا أعرف... وما زلت أخاف أن أسألك.

- ظننته عاد. . . النساء لم يقلن إلا أن ضيفاً عزيزاً في البيت.

- أنا الذي جئت، ألا تريدينني؟

- ولكنني ظننته هو. . . فأنا أنتظره منذ وقت طويل. لقد طالت سفرته، ولا بد أن يعود!

وفهمت بسرعة، كانت جدتي تنتظر عودة خالي.

* * *

- 2 -

كان خالي الابن الوحيد بين ثلاث أخوات، وكانت أمي وحدها أصغر منه، وظلت رابطة لها نكهة خاصة تربطه بنا؛ فلا تمر أيام قليلة إلا ونراه بيننا. ولكن في كل مرة رأيت خالي كنت أحس أن شيئاً أقرب إلى الحزن يسيطر على البيت. كان حزناً لا تبدو له أسباب واضحة. كنت أراه جالساً بجانب البركة في بيتنا بالمدينة، أو في غرفة الجلوس والصمت ثقيل مثل غيمة. وأمي تحمل له القهوة ولا تتحدث معه إلا إذا أراد، وهو في صمته ينزلق لحظة بعد أخرى، حتى كأنه يريد أن يتلاشى، فلا يحس به أحد، وكان بوجهه الشاحب، وعينيه المتعبتين الحمراوين يثير فينا حزناً غامضاً. حاولت كثيراً أن أسأل أمي عن صمت خالي، لكن في كل مرة أجد جواباً جافاً يخلق في نفسي أسئلة أخرى لا جواب لها.

وفي القرية، حيث كنا نمضي كل صيف، بعد انتهاء السنة الدراسية، كنت أراه كثيراً: كان طويلاً أقرب إلى البياض، نحيف البنية، حتى أن شكله كان يثير في النفس شعوراً بحساسية لا تتناسب مع الرجال الذين كنا نراهم في الحقول أو في المتاجر. كان لا يفعل شيئاً سوى أن يقرأ، وكانت أمي إذا أحست أن القراءة أتعبته تهمس في أذنه، وتحاول أن تنبهه من جديد:

- أنت تتعب نفسك كثيراً... يجب أن تكف عن السهر. كل يوم، كل يوم سهر؟ ولا تنتظر منه جواباً إذ تتابع بنفس الهمس الحزين: يكفي أن تقرأ ساعة أو ساعتين.

وخالي يبتسم ولا يجيب. فإذا ألحّت عليه يقول:

- القراءة أفضل من أن أشغل نفسي بأشياء أخرى. وتتحول لهجته وهو يسألها: ماذا تريدينني أن أفعل؟

- اقرأ... لكن للقراءة حدود. الإنسان ليس مثل الحديد، ولا يمكن أن تتحمل ذلك طويلاً.

- لا تخافي من هذه الناحية. صحتي جيدة، وعندما أتعب من القراءة أنام... وابتسم وهو يضيف ليخلق جواً من الثقة: القراءة متعة، وكل متعة تقوي الإنسان لا تضعفه.

- ولكن أمي تقول إنك لا تنام أكثر من ساعة في الليل، وكلما قامت وجدت ضوء غرفتك ووجدتك تقرأ.

- أمك لا تريدني أن أقرأ أبداً... تقول: عيونك، صحتك. وغيّر لهجته تماماً وتابع:

- أنا أنام كثيراً. . . أنام في الليل وبعد الظهر.

كانت القراءة تسلية خالي الوحيدة. . . ولا أذكر أني رأيته مع أصدقاء. كان له بعض المعارف، لكن الوقت الذي يقضيه معهم يبدو له مسئماً، فلا يرتاح إلا إذا عاد لكتبه وصمته. . لم يكن يقرأ كل الوقت، فقد راقبته أكثر من مرة، يطوي الكتاب وتتيه نظراته وهو يحدق بالجدران أو بدالية العنب وبعض الأحيان كان يسقط الكتاب من يده، فيفيق، وكنت أراه أحياناً يتمتم بصوت خافت وكأنه يستعيد أبياتاً من الشعر، أو يغني. فإذا عاد إلى الكتاب يقرأ ببطء، حتى أن الصفحات لا تنقلب إلا نادراً.

هل كان يقرأ؟ هل كان يفكر؟ لا أحد يستطيع أن يجيب على مثل هذه الأسئلة؛ والمرات القليلة التي أتيح لي فيها أن أطلع على الكتب التي يقرأها، بدت لي غامضة مثيرة. . . وكانت أمي تصر على أن تبعد هذه الكتب عنا، وتوصية أبي دائماً انتبهي على الأولاد، لا أريد أن يخربهم بكتبه وأفكاره، هذه الكتب تجلب المصائب، سياسة وكفر، رأيت كتباً فرنسية لم أفهم من عناوينها شيئاً، ورأيت على بعضها صور فتيات ورجالاً يحملون المسدسات ويدخنون. . . أما الكتب العربية فكانت قليلة، ولا يقرأ فيها إلا بفترات متباعدة.

في وقت ما قرر خالي أن يلتحق بوظيفة حكومية. لكن بعد أن عجز عن الارتباط بالزراعة، قال له أبوه مرات كثيرة أن يعمل معه، لكن كل المحاولات ذهبت دون أثر. والعجوز لا

تتدخل إلا من أجل الدفاع عن ابنها. كانت تتعارك مع جدي، تقول له كلمات قاسية إذا حاول مرة أن يتطاول، وتقول له هذا الولد لم يخلق للزراعة، والزراعة يكفيها الحصان... وتشير إليه. ويضحك جدي وقد امتلأ رضاً عن نفسه، ولكن هذا الرضا يدوم لحظة، ينفجر بعد ذلك على شكل سؤال...

- وماذا تريدين أن يكون... إذا لم يعمل في الزراعة؟

- دعه يختار ما يشاء.

- ليعمل شيئاً... أي شيء.

- لا تخف... هذا ولدي... أرضعته من صدري وأعرف أي شيء سيكون.

- لا أخاف... ولكن أنت تعرفين أن الرجال لم يخلقوا للبيت.

- وهل تريد أن تقتله؟

- إنه يقتل نفسه إذا ظل هكذا.

وغالباً ما ينتهي النقاش بانتصار جدتي. كان جدي دائماً يقتنع، ولكن اقتناعاً مشوباً بالقلق والغموض. وجدتي تتحدث مع أمي... تطلب إليها أن تقنعه بأن يعمل شيئاً ما، أن يفكر بمستقبله. وأمي إذا تحدثت معه تختار كلمات هادئة رزينة تعلمتها في المدرسة الابتدائية، وغالباً كانا يتفقان. كان يقول لها:

- أريد أن أواصل دراستي... لا أريد أن أبقى هنا.

ولا أحد يفهم خالي.

وذات يوم، بعد وفاة جدي بثلاثة شهور التحق خالي بعمل في محكمة المدينة.

كان كاتباً... وكان ما إن يعود من عمله، حتى يبدو وقد تغيّر تماماً... الشحوب والتحدي اللذان كانا صفة عارضة في وجهه، أصبحا منذ أن عمل في المحكمة، شبحاً يرتسم في عينيه ووجهه، طوال الليل والنهار.

سألت أمي ذات مرة، عن متاعب خالي وصمته، قالت بعد تردد:

- كان له همّ واحد، لكن منذ أن عمل في المحكمة أصبح له همّان.

- عن أي هموم تتحدثين يا أمي؟

- كان خالك فاقد الثقة بكل شيء. كان يتصور أن الحياة مليئة بالتعاسة والفشل، ولم يكن يملك سنداً لذلك، لكن منذ أن عمل في المحكمة، أصبح لديه كل يوم عدد لا يحصى من الأدلة.

وأسأل أمي بلهفة عن الأفكار التي تشغل خالي، لكن كلماتها تضيع، فلا أفهم منها شيئاً.

ذات يوم، بعد أن تغيرت طباع خالي تماماً، فأصبح أقرب إلى الحزن والأرق، لدرجة أن الشحوب لم يعد صفة تبدو على وجهه فقط، بل أصبح كل شيء فيه شاحباً. أصابعه ترتجف،

عيناه حمراوان وبعض الأحيان تتساقط منهما الدموع، وثيابه أصبحت فضفاضة لدرجة بدت وكأنها لرجل آخر أكبر منه وأضخم.

ذاك اليوم، بعد مشاورات طويلة، بين أمي وخالي، سافر.

سافر إلى مرسيليا، بعد أن اقتنعت أمي، ووفرت له بعض المال، وبعد أن أخذ سلفة من إدارة المحكمة... ولكن لم يكد يغادر حتى وضعت المحكمة الحجز على أموال جدي ضماناً لذلك الدين... وكانت جدتي حتى ذلك الوقت تظن أن الأمر مجرد مزحة عارضة لا بد أن تنتهي بشكل ما... لكن الأمور أخذت شكلاً آخر.

كان خالي قد وضع ثقته برجل فرنسي يسكن في مرسيليا، وكان هذا الرجل قد جاء قبل ذلك إلى هنا، وقامت بينه وبين جدي صلات وثيقة، انتهت بأن باعه كميات كبيرة من الحبوب من القرية ومن القرى المجاورة، ونتيجة هذه الصفقة، وصفقات غيرها، حيث كان خالي يقوم بالترجمة بينهما، تحدث الرجلان وكان حديثاً طويلاً عن الدراسة ومرسيليا وفرنسا...

سافر خالي إلى مرسيليا على أمل أن يواصل دراسته؛ لكن الأمور لم تسر على ما يرام. إذ ما كاد يصل إلى مرسيليا حتى وجد أن ذلك الرجل قد توفي. وضاعت بوفاته كل الآمال التي علقها على أن يحصل على منحة أو يواصل دراسته.

انتهت الأموال التي أخذها خلال الشهور الأولى، وبدأت رسائله لأمي تأخذ طابعاً يائساً... لم يكن يطلب مالاً. ولم يكن يريد شيئاً. كان يردد بلا انقطاع قصصاً عن تعاسته وشقائه، وكان يقول كلمات تخيف أمي... حتى كان يوماً اشترت أمي تذكرة سفر بالطائرة وأرسلتها لمرسيليا على عنوان خالي...

لكن...

جدتي لم تصدق أن خالي سافر... ظنت أنه غائب في مكان ما قريب لفترة من الزمن وظنت أن سبب ذلك امرأة، لا بد أن تظهر في وقت ما، وظلت لا تصدق كلام أمي وتعتبرها تخفي خبر هذه المرأة.

عادت البطاقة التي أرسلتها أمي. وعادت من إدارة الجامعة إلى عنوان أبي رسالة حزينة وعديمة الجدوى...

«نأسف أن نخبركم... أننا حصلنا على العنوان من أوراق الفقيد، فقد كان... مريضاً في المستشفى بعد انقطاع عن الجامعة استمر شهرين كاملين، كان المرض ناتجاً عن سوء التغذية، وقد أخبرتنا إدارة المستشفى أن الفقيد كان على وشك أن ينهي علاجه... لكن انتهى الأمر بغموض ودون مقدمات من أي نوع توحي بقراره، فقد تخلص الفقيد من الحياة يوم الاثنين تاريخ 17 نوفمبر سنة 1960، وطلبت إدارة المستشفى أن لا تتصرف بالجثة قبل أن تعرف رغبات أهله.

وإدارة الجامعة إذ تبعث إليكم بتعازيها وأسفها لهذا

الحادث المؤلم، تتوقع أن تبعثوا بالسرعة الممكنة جواباً حول رغبتكم، ويفضل مجيء أحد أفراد العائلة في حال وجود رغبة بدفنه في الوطن.

بانتظار جوابكم نكرر أسفنا الممزوج بالحزن العميق لهذا الحادث. . . »

كانت تلك نهاية خالي، وظلت غامضة محيرة بالنسبة لنا. أما جدتي فقد قالت عندما تسرب إليها الخبر عن طريق نساء البلدة:

لا يمكن أن يموت. . . كاذبون، كل من يقول إنه مات كاذب، ولا بد أن يعود.

ولم يناقشها أحد. . . سكتوا احتراماً لحزنها. .

أما خالاتي وزوجات أقربائي فقد بكين كثيراً ولكن تحدثن عن أمي بسوء، وقلن إن أمي هي التي قتلته عندما شجعته على السفر. . . وقال الرجال يجب أن لا يذكر أنه انتحر، فالانتحار ليس عيباً فقط وإنما مخالف للدين أيضاً، ولكي تنتهي القصة بصمت ودون أن تترك أثراً من أي نوع، بعثوا إلى إدارة المستشفى والجامعة برقيتين طلبا فيها أن يدفن خالي بمرسيليا. . . . وأصروا أن يذكروا في البرقية على أن الدفن يجب أن يجري على الطريقة الإسلامية!

بهذا الشكل انتهى خالي. أما جدتي فإنها لا تصدق حتى الآن. . . وقد ظنت عندما وصلت إلى البلدة لوداعها، أن خالي قد عاد. . . هكذا ظنت أو هكذا توهمت من الكلمات التي

رددتها قبل أن تعجن، وهي ترتاح عند صدري على الفراش في تلك الليلة!

* * *

- 3 -

غادرت البلدة، وأمر سفري غامض. لم أقل لجدتي كل شيء... قلت لها... الوشاح هدية من أمي. أما أنا فلدي أمور في الداخل، وقد أسافر إلى الخارج لبعض الوقت؛ وجدتي اعتبرت كل ما قلته دعابة أو نوعاً من الدعابة الثقيلة التي لا تليق بشخص مثلي، وظلت طوال تلك الليلة، والصباح التالي، تردد:

- يجب أن لا تكبر... يجب أن تعود لأرض جدك، لن تكون وحيداً، سيأتي خالك ذات يوم وتعملان معاً. الأرض... الأرض يا ولدي تحتاج إلى رجال. والأرض... الأرض، بعد جدك لم تعد كما كانت، يجب أن تبقى فوق الأرض، وخالك عندما يعود ستغريه الأرض الخضراء والأشجار المثمرة... أما إذا عاد ووجدها أرضاً قاسية لا خضار فيها ولا أشجار، فقد يسافر مرة أخرى.

وأصمت لا أجيب. كنت أعرف أن خالي انتهى منذ سنوات طويلة، وأن عظامه ترقد الآن في إحدى مقابر مرسيليا... ستكون مقبرة مسيحية دون شك، لأن الناس عندما يموتون يتشابهون تماماً، لا فرق بين مسيحي ومسلم،

كلهم موتى، والموتى لا يختلفون، يرقدون بهدوء، دون أن يذكروا شيئاً عن ذويهم، وعن خلافاتهم السابقة.

وغادرت البلدة في الصباح التالي.

كانت الأشجار هرمة، كبيرة، بائسة. أما جدران البيوت فقد تساقطت عنها الأصبغة فبدت بلون القبور، حتى النهر الصغير، بدا لي زائداً منفراً، ولم أستطع أن أنظر إلى مائه وأنا أعبر الجسر باتجاه محطة السيارات التي تقودني إلى المدينة.

أما جدتي، فقد خلعت الشال، وقالت وأنا أسألها أن تضعه:

- لن أضعه إلا إذا عدت مرة أخرى، إذا عدت أنت أو عاد خالك، وعندها يمكن أن أستخرج من الصندوق أشياء كثيرة حلوة لم ألبسها منذ وقت طويل!

تركت كل شيء ورائي وأنا أشعر بحزن موجع... وفي فكري تثور أسئلة بلهاء، لا أجد لها جواباً أبداً: لماذا سافر خالي؟ لماذا قتل نفسه؟ وأنا... إذا سافرت هل أعود مرة أخرى؟ وجدتي هل تبقى حية حتى أعود؟

ظلت مثل هذه الأسئلة تشغل فكري، وظلت دون جواب.

رجعت في الصيف... بعد سنة دراسة متعبة، شعرت خلالها أن السفر عذاب، وأنه مثل النهر الجاري يجدد شباب الإنسان ويدفعه نحو الشلالات الخطرة..، وكنت أحمل معي هدية حاولت أن أختارها بعناية لجدتي...

اشتريت شالاً... وكان هذه المرة أسود، لا أعرف لماذا

اخترت هذا اللون ولكن قدرت أن جدتي وهي تنتظر خالي، لا بد وأن تكون قد كبرت كثيراً، وأن اللون الأسود يليق لها أكثر من أي لون آخر.

سألت أمي عن جدتي... فلم تجب... حاولت أن تهرب من السؤال. سألتها مرة أخرى ولكن لم أتلق جواباً...

وكنت وأنا أسافر إلى البلدة في اليوم التالي، متأكداً أن كل شيء قد انتهى...

لقد كان صمت أمي، جواباً قاطعاً حاداً، أكثر من أية كلمات... ولكن لا أعرف لماذا تركتني أمي أسافر...

كانت البلدة ما تزال تربض بين الجبال... كانت الأشجار مورقة خضراء، الجو جاف، خشن، وأقرب إلى الحرارة، لكن ماء النهر وأنا أعبر الجسر كان يتدفق بعنفوان أخرس... توقفت على الجسر، وثارت في رأسي أسئلة كثيرة: هل عاد خالي؟ وجدتي ألا تزال حية أم ماتت منذ وقت طويل...؟ وأنا هل كبرت أم لا أزال صغيراً؟ ومر الماء تحت الجسر متدفقاً غزيراً...

وعندما اجتزت الزقاق بسرعة، واقتربت من بيت جدي... وجدت الباب مفتوحاً... اشتدت دقات قلبي وانتابني شعور أن جدتي تقف عند الباب وإذا لم تكن هناك فلا بد أنها تنتظر في الغرفة الوسطى... سوف تقف بأرجلها الثلاث، سوف تهجم عليّ، سأشم في صدرها وثيابها رائحة الطفولة والأشجار الخضراء، رائحة الأرض...

اجتزت الباب، درت على الغرف، وجدت غرفة خالي على حالها، بنظافتها وصورها، لكن شيئاً واحداً أثارني وخلق فيّ حزناً لا أعرف له تفسيراً... كان الغبار على الفراش والطاولة...

وقبل أن أنتهي من جولتي جاءت أكثر من امرأة من جارات جدتي... ومن خلال العيون التي سبقت الكلمات، أحسست أن كل شيء قد انتهى.

لما غادرت البلدة... بدت لي الاشياء منفرة غريبة. الأشجار والأزقة والنهر الصغير...

وفي نهاية الزقاق توقفت ونظرت إلى الخلف... كان الباب لا يزال مفتوحاً، كأنه ينتظر قدوم أحدٍ!

رسالة... من وراء الحدود



انتقلت من وسط البلاد إلى العاصمة. بقيت في الفندق فترة، وبعد مضي أيام، أزعجتني معها الأصوات القاسية التي كانت تنبعث من الراديو، والصخب والضجيج الذي رافق قدوم هؤلاء المهاجرين، قررت في لحظة مجنونة أن أبتعد عن مركز المدينة، وأن أتوقف عن سماع الراديو وحتى عن قراءة الجرائد، وبدأت أفتش عن بيت يلائم وضعي ومزاجي. بعد عناء ومشقة، قادني دلال عجوز إلى طرف المدينة.

ظننت أول الأمر أنه يسخر مني، ولكن الأحاديث المغرية والأسعار لم تترك لي فرصة للتفكير. أخذت البيت. وكنت راضياً بعد تجربة الغرق في وسط المدينة، وضجيج الراديو الذي لا يتوقف لحظة واحدة. ولا أدري كيف دفعتني هذه الصدفة لكي أسكن قريباً من البناية التي كان ابن نايف الهذال ناطوراً لها، فبعد أن تغير كل شيء.. عاد أصحاب الدور كي يكملوها، وفكر آخرون بالبناء.. ومن هنا انفتحت أمام سعد فرصة للعمل. فأصبح ناطوراً لإحدى البنايات الكبيرة.

وفي هذه المدينة اللعينة وجد نايف الهذال نفسه زائداً،

وصغيراً، وإزاء هذا الشعور رفض أن يفعل شيئاً، تخلى بغضب عن دوره الذي كان يحرص عليه لأيام قريبة خلت، وقال لسعد، ابنه الكبير: أنت الذي أشرت علينا بالهجرة، فدبر منذ الآن أمور المهاجرين.

كان سعد رجلاً تجاوز الأربعين، ولكن ما دام نايف حيّاً، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا برغبته ورضاه. أما الآن، وقد تخلى نايف عن دوره، فقد انتهى الأمر، وأصبحت العائلة تسكن في بيت من تلك الدور الخالية، التي توقف أصحابها عن إكمالها بسبب الحرب.

في الأيام الأولى لم ألاحظ شيئاً، لكن وقفاتي الطويلة على محطة الباص، ثم مروري في الشارع في أوقات مختلفة، لفتا نظري إلى ظاهرة غريبة، بدأت أتابعها باهتمام يزيد يوماً بعد يوم.

كان نايف الهذّال العجوز - الذي عرفت اسمه فيما بعد - لا يكف لحظة واحدة عن القيام بما يشبه الواجب الرسمي. ولم يكن هذا الواجب يتعدى السير، بشكل دائري، حول مجموعة من البيوت، تشكل البناية الجديدة بدايتها ونهايتها في وقت واحد. . ولا أتذكر أنني وقفت على النافذة، في وقت من الأوقات، إلا ورأيت نايف ماراً، وإذا لم يمر، فإنه يكون في نهاية الزاوية، من الناحية الثانية، ولا تنقضي دقائق قليلة حتى يصل.

هل كان يفتش عن شيء في الأرض؟ هل كان ينتظر أن

تنفْجر قنبلة بين قدميه ويترقّب انفجارها؟ لم يكن يرفع رأسه أبداً. كان دائماً مطرقاً وسائراً، وأكثر الأحيان يدخن؛ ونتيجة ذلك انحنى ظهره وأصبحت الشمس تؤذي عينيه؛ ولكن لم يكن يكف عن الدوران يوماً واحداً، خلال أيام السنة التي عشناها معاً.

راقبته وقد تملّكني شعور بالضيق؛ إن هذا الرجل الذي يسير وحيداً، لا يتكلم، ولا ينظر إلى أحد، لا بد أن يكون لديه سر؛ وحرت في تفسير أمره، فهو لا يدع فرصة لأن يكلمه أحد، ولا يقف لحظة لكي يتمعن به الإنسان؛ وفي الحالات القليلة التي رأيته جالساً، كان يبدو غريباً.

في ظل جدار لا يبعد عن نافذتي أكثر من خمسين متراً، صنع لنفسه زاوية يجلس فيها عندما يتعب، وهذه الزاوية لا تتعدى فسحة صغيرة من الأرض، نظفها بإتقان، ووضع على طرف منها حجرين يستند إليهما. . ولم أره مرة واحدة إلا وهو يعبث بعصا صغيرة بيده، كان يرسم على الأرض، وقد حاولت أكثر من مرة أن أتعمد المرور قريباً من هذا المكان، لعلّي أرى شيئاً، ولكن في كل مرة أجد الأرض مستوية، ناعمة، وكأن أحداً لم يمسسها.

ظلت الأمور هكذا. وأنا أزداد حيرة ورغبة في اكتشاف هذا المخلوق البشري التائه. سألت عنه الكثيرين، ولكن لم أجد أحداً يعرف عنه شيئاً. .

حاولت أن أنساه. اعتبرته رجلاً شاذاً، وليس لديه ما

يستوجب أن ينشغل الإنسان بمراقبته أو السؤال عنه، حتى كان ذلك اليوم.

كنت جالساً في غرفتي يأكلني الضجر، والصمت ممتد مثل غيمة ثقيلة تمنع التفكير والأمل والرغبة، وإذ بي أسمع طرقاً على الباب. كان طرقاً هادئاً، خلته أول الأمر ريحاً، ولكن هذا التكرار الرتيب، جعلني أتريث لعلي أتذكر هذه الطرقات.. و لا أعرف أي شيطان سمّر قدميّ ودفعني للتحدي.. قررت أن لا أفتح الباب ما دام الطرق مستمراً هكذا؛ وخلال لحظات سمعت أصوات أقدام تنفتل وتمشي، ولم أتمالك نفسي، فتحت الباب بقوة وأخرجت رأسي وإذ بهذا الرجل نفسه يطلّ عليّ!

بدا لي عن قرب يختلف كثيراً، فالسمرة القاسية التي كانت تبدو في وجهه، تحت منديله الأبيض، كانت نتيجة لفحات الشمس والأيام، لأني رأيت بين ثنيات وجهه العجوز بياضاً، ورأيت تحت المنديل في أعلى الجبهة لوناً فيه شيء من الحمرة على تراب.. أما عيناه فقد كانتا أغرب شيء في وجهه: كانت عيناه صغيرتين، لكنهما تمتلئان بالدفء؛ لم يترك لي فرصة لأتمعّن فيه، إذ رفع بيده قداحة، وبصوت واضح عميق، قال:

- أريد بنزيناً.. هل لديك بنزين للقداحة؟

وبلهفة جارفة طلبت إليه أن يدخل. تردد أول الأمر، ولكن إزاء إلحاحي تقدم بخطوات عجوز مثقلة ودخل.

قلت لنفسي: «الآن سأقبض على الرجل.. لن أتركه حتى يقول لي كل شيء».

بحثت عن زجاجة بنزين، كنت أستعملها لتنظيف الثياب، حتى وجدتها، وقبل أن أعود بها استخرجت هدية قديمة، وهي عبارة عن قداحة بفتيل، وقلت في نفسي: «سأحمله على الكلام، وستكون هذه القداحة الجسر بيننا!»

أعطيته الزجاجة، وفيما كان يملأ قداحته بالبنزين، ألقيت قداحتي بإهمال على الطاولة؛ وما كاد ينتهي، حتى أخرج سيجارة وأشعلها. وكاد أن ينتهي كل شيء، لولا أنني بدافع الفضول قلت له:

- يمكن أن تحتفظ بالزجاجة، فأنا لا أحتاج إليها.

نظر إليّ دون اهتمام، وقال بنفس النبرة العميقة:

- لا أحتاج إليها.

وبدون أن أتركه.. قلت:

- أنت لست من هنا.

ولم يجب. ظل صامتاً وقد أرخى عينيه تماماً، كأنه يتمعن حذاءه أو الأرض. وبسرعة سألته من جديد:

- من أين أنت ياعم؟

ودون أن يرفع رأسه قال بصوت بدا لي أضعف من قبل:

- من هذه البلاد. وهز رأسه لا يريد أن يتابع، وكأنه يلتذ بأن يتذكر وحده.

قلت:

- أنت غريب، يبدو ذلك في اللهجة.

حتى تلك اللحظة لم تكن لهجته توحي بشيء، لكنها طريقة أتبعها لكي أستدرجه.

قال وقد رفع عينيه للحظة خاطفة، نظر إليّ يقرأ أفكاري، ثم خفض عينيه وقال:

- وأنت من أين؟ هل أنت من هذه المدينة؟

قلت أشجعه:

- أنا جديد في هذه المدينة، لقد أتيت قبل فترة من الريف.

كانت هذه الكلمات البداية بيننا. رأيته يرفع عينيه ويركزهما في عيني، ليتأكد من كلماتي. وكأنه أحس بالحرارة.

قال:

- وأهلك معك؟

قلت وقد احترت، وأريده أن يواصل:

- بعض أفراد عائلتي معي، لكن أكثرهم ظلوا هناك.

- ويمكنك أن تزورهم متى تشاء؟

- طبعاً، أستطيع أن أذهب في أي وقت!

هزّ رأسه، وهو يقلب شفتيه دلالة الأسى والذكرى، وعاد ينظر إلى الأرض من جديد، قال وما تزال عيناه هناك:

- أما أنا فمحرّم عليّ أن أذهب إلى بلدي. . ولو تعرف من يحرمني!

- من يحرمك يا عم؟

- قد تظن أن الحكومة تفعل ذلك، أو اليهود. . لا، إن أبنائي هم الذين يمنعونني!

- إذن أنت من الجولان.

- بدوي، فلاح. . أسكن في أطراف القنيطرة.

- ولماذا يمنعك أبناؤك؟

- لا أعرف. يقولون غداً سنرجع كلنا، ولا يمكن أن تذهب وحدك، أقول لهم اتركوني، إذا انتظرتم الوعود، فلن نرجع أبداً. أريد أن أذهب. ولكن لا يتركونني!

- وهل تستطيع أن تعود في مثل هذه الظروف؟ والحكومة! واليهود؟

قال وهو يعض على شفته السفلى بتحدٍّ، ويتلفت حواليه، كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- لو تركوني فلن يقف في وجهي أحد. أستطيع أنا أن أدبر أمري، وسوف أصل بسهولة.

- ألا تخشى شيئاً؟ ألا تخشى أن تموت!

- وماذا لو متّ؟

قالها بسخرية. وتوقف لا يريد أن يضيف شيئاً، وكأن

الذكريات أقوى من الكلمات، ولا يمكن أن تتحول تلك الأيام المشحونة إلى ألفاظ عاجزة ذليلة.

قدمت له سيجارة، ولما حاول أن يشعلها قلت له:

- لحظة يا عم، أريد أن أشعلها لك بقداحة لا تترك فيها طعماً سيئاً.

نظر إليّ وكأنه لم يفهم، وتلفت حوله بتساؤل، ولكن ما كاد يراني أقدح الزناد لأشعل الفتيل حتى رأيت ابتسامة واسعة تعبر وجهه، فتضيئه. قال مثل طفل صغير:

- من أين لك هذه القداحة؟

قلت وقد تملّكني شعور الظفر:

- أخذتها من أبي.. وعنده أكثر من قداحة.

وتابعت بإغراء مكتوم:

- ما رأيك أن تقبلها مني هدية؟

ومد يديه الاثنتين في وجهي دلالة الرفض الحاسم، ولكن إزاء إلحاحي وافق وهو يقول:

- لا أقبلها حتى تأخذ هذه.

وألقى القداحة على الطاولة.

قلت وقد قررت أن أقبل المبادلة إن أصرّ:

- ولكن ليس الأمر مبادلة، كما أني أستطيع أن أحصل على قداحة مثلها بسهولة.

وأصر.. وقبلت.

ولكي أخلق جواً من الألفة، قلت بطريقة لا تترك مجالاً للرفض:

- سوف أصنع قهوة مرّة.. لدي كل شيء من أجل القهوة المرّة، عدا المهباج والمنقل.. ماذا تقول؟

وبتسليم أنيس وافق.

وتحدثنا ونحن نرتشف القهوة، قال أشياء كثيرة وقلبه ينفطر من الأسى والحزن:

رفضنا أن نتحرك لما طلبوا منا، سألنا أين تريدوننا أن نذهب؟ ولدنا هنا، قالوا تحركوا إلى الخلف، لكي يتمكن الجنود من أداء مهماتهم، لم نصدقهم، فقد كنا نتعاون مع الجنود دائماً، ولم نتصور أنهم يتضايقون منا، أجبرونا على أن نرحل، حملنا الأشياء التي نستطيع حملها، وتحركنا، لكن عيوننا لم تكن تفارق الأرض التي تركناها. وبعد أيام دفعتنا الكتلة البشرية الضخمة أمامها وساقتنا إلى المدينة.

في المدينة لا نستطيع العيش، كنا نريد أن نبقى على أطراف المدينة لكي لا يؤخرنا شيء عن العودة.

تابع وعيناه تمتلئان بالحسرة والندم:

أقمنا في الطريق بجانب الجامع، تابعنا بعدها المسير، ولما وصلنا إلى المدينة وضعنا في المدارس، وأخيراً وزعوا الخيام، ولم أستطع الحصول على واحدة، اشترطوا أن أسكن

ناحية الشرق ولم أشأ، كان الشيء الوحيد الملازم لي الراديو، لم أتخل عنه أبداً. . قال هذا، وقال كلمات كثيرة، لا أريد أن أتذكرها، ولكن كنت أحس نفسي صغيراً ذليلاً، حتى وددت في لحظات معينة لو يصمت، أو لو أن هذا التعارف انتهى بيننا عند عتبة الباب.

ومنذ تلك اللحظة الخطرة، شعرت أن الأشياء تأخذ معاني لا تكتسبها إذا فقدت الصدق والبساطة. كما أن الرجال يفتقدون كثيراً من قوتهم ونفاذ عقولهم، إن هم وضعوا الأشياء التي يريدونها بكلمات. كان الرجل يكره حتى أن يذكر اسمه، يكره كلمات الإذاعة وخطب القادة والتفاهات. كان يريد شيئاً واحداً، قال ذلك وهو يغادر الغرفة:

- أفضل شيء أن يثبت الإنسان في مكانه. الأرض أثمن من كل شيء، أثمن من الأولاد والحلال، وإذا فقد الإنسان أرضه يصير مثل هذا الرماد.

وأطفأ سيجارته بغضب.

لا يحسن بأي إنسان أن يسمع أو يتذكر كلمات هذا العجوز، لأن هذه الكلمات رغم أنه قالها بصوت عميق بطيء، تشبه السكين الحادة وهي تنزل في الصدر. ومنذ أن سمعت تلك الكلمات قررت أن أتوقف عن تذكرها لئلا أبدو عارياً وضعيفاً. ولكن عبثاً أفعل.

* * *

مرت أيام تابع نايف الهذال، دون توقف، حياته. كان يدور حول البيوت أغلب ساعات النهار، وحتى بعد غروب الشمس. عيناه مثبتتان على الأرض، وخطواته صغيرة قوية، وفكره يشرد بعيداً في الأرض التي تركها هناك.

ذات يوم افتقدته. ظننت أول الأمر أنه المرض، ولكن ما كدت أسأل ابنه سعد عنه، حتى ردّ عليّ بصوت قاسٍ معادٍ:

- وهل تريد منه شيئاً؟

قلت بارتباك، وإن لم أتوقع هذه النبرة:

- مجرد سؤال.

وبنفس الصوت القاسي المعادي، قال لي:

- قل إذا كنت تريد شيئاً منه؟

- لا. . لا أريد شيئاً ولكني جاركم هنا. وقد تعرفت على الوالد، ومنذ فترة لم أره.

- قلت لك إذا كنت تريد منه شيئاً، فنحن مستعدون.

- لا أريد شيئاً منه أبداً.

قال ونظراته ما تزال تحمل عداءً غامضاً:

- ليس موجوداً.

وصممت أن أعرف، فقد شعرت أن في الأمر سراً. قلت:

- هل هو مريض؟

- لا.

وبدون أن أترك الأمر يفلت مني، سألته من جديد:

- هل حصل له شيء لا سمح الله؟

وبنفاد صبر، قال سعد وشعور العداء يتحول إلى خيبة متعاطفة:

- لقد سافر.

وبدون أن أشغل نفسي بالأفكار والهواجس، وكأن إحساساً غامضاً سيطر عليّ، قلت له:

- سافر إلى القنيطرة.. أليس كذلك؟

- نعم.. سافر إلى هناك.

بعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء، وأنا أقف على الشباك، رأيت سعد يعبر الشارع باتجاه داري، وقبل أن يصل حيّاني وسألني إذا كنت قادراً على استقباله لفترة قصيرة، ودون تردد ذهبت إلى الباب أفتحه وأستقبل هذا الضيف القاسي.

بعد أن جلس، عرضت عليه أن يدخن فاعتذر، سألته عن أحواله فأجاب بكلمات قصيرة كأنه لا يريد أن يتحدث. ولما استنفدت كل ما عندي من كلمات المجاملة، عاد الصمت يسود قاسياً متشبثاً مثل الرصاص. وكأنه حرك شيئاً في أعماق الرجل الذي يجلس أمامي، وبهدوء رأيته يدفع إليّ برسالة استخرجها من جيبه.

قال لي وهو يستعمل كلمات اعتذار عن لقائنا الذي كان قبل أيام:

- لم أكن أعلم أن الوالد يعرفك، وكنا جميعنا غاضبين لسفره، أما الآن بعد أن بعث لنا برسالة مع طارش، فقد تغيرت الحال، ودون أن أسمع الكلمات اندفعت إلى الرسالة أقرأها، وأتذكر ما جاء فيها:

تعالوا هنا، تعالوا كلكم. لو جئتم لرأيتم أرضنا ما تزال في مكانها. فتحوا جهة الشرق، مكان كرم الخوري طريقاً عريضاً، والسيارات لا تهدأ على هذا الطريق، وكل من يمر ينهب بستاننا. لو كنتم هنا لحرسنا البستان، أنا وحدي لا أستطيع. لا أحد يحبهم. لئام ومتكبرون، يريدون أن يأخذوا كل شيء، لو كنتم هنا، وكان الآخرون لما استطاعوا، ولكن ماذا نفعل نحن الذين بقينا هنا؟ نحن لا نزيد عن عشرين أو ثلاثين رجلاً، وأكثرنا كبار في السن.. اسمعوا منا وقولوا للجميع أن يرجعوا، إذا رجعتم لعنّا والد والديهم. فكروا بالأمر ولا تتأخروا.

أمانة يا سعد تسلّم على الجار مقابل البناية الزرقاء.. رجل شهم، أحببته، وهو الذي أعطيته قداحتي وأعطاني القداحة الفتيل.

سلّم على كل من بطرفكم، وأخبرهم أن المطر بطرفنا كثير.. لكن أيام زمان كان أحسن، أنا بخير، سلامي للجميع.

سالم الساحور، كاتب الرسالة يسلم عليكم ومشتاق لكم.

بعد أن قرأت الرسالة التي أعدتها إليه، وقبل أن يضعها في جيبه لا أدري لماذا تشوقت أن أطلع على العنوان. .

فقد كان:

الشام. غرب البلد، قرب الطريق العام.

حضرة ولدنا الغالي: سعد نايف الهذال أدامه الله.

كلمة حلوة



سلمان جاد الله، يعرفه جميع سكان الحي، كان يدخل إلى البيوت بثقة وشجاعة، يأكل ويتحدث، ويقوم بكل الأعمال التي تُطلب منه، لقاء أجور زهيدة، يوافق أكثر الأحيان على أن تدفع في نهاية الشهر أو تؤجّل إلى وقت آخر؛ كان مألوفاً ومحبوباً من الصغار والكبار، بوجهه الممتلىء المتهدل وعينيه الصغيرتين الضاحكتين. أما ملابسه فقد ظلت لا تتغير أبداً: بنطال عريض لا يُعرف له لون لكثرة الرقع، ومعطف شتائي أزرق على أكمامه عند الكوعين قطعتان من الجلد البني، كان سلمان لا يتخلى عن المعطف أبداً، ويستعمله لأغراض كثيرة.. النوم والأكل ويخزن فيه كل ما يُعطى إليه، أما في الجيوب الداخلية فيضع أشياء عجيبة لا تخطر على بال. وفي المرات القليلة التي عرض فيها محتويات تلك الجيوب تساقطت عشرات الأشياء الصغيرة: أزرار، صور، زجاجات أدوية فارغة، أوراق، قصاصات جرائد، أكياس مطوية بعناية، ونظارة لها زجاجة واحدة وفرشاة أسنان مكسورة ومحفظة جلدية مهترئة الجوانب.. كان يترك الأشياء كلها على الأرض

عدا المحفظة، فيرفعها ويهزها في الهواء وهو يقول:

- مخزن ذكريات.

كان سلمان جاد الله يغيب عن الحيّ فترات، ولكنه يعود، كان دائماً يعود. فإذا أطل من بداية الشارع بدا بشكله الضخم الغريب، مثل سفينة تتحرك ببطء. وما يكاد يصل قريباً من الأولاد حتى يتوقفوا عن اللعب ويراقبونه، لأنهم يتوقعون منه دائماً شيئاً جديداً؛ وهو إما أن يواصل سيره دون أن يأبه بوجودهم، وقد استغرق في الغناء أو التفكير، أو أن يتوقف. فإذا توقف نظر بعينيه الضيقتين وهو يهز رأسه وفي لحظة خاطفة يكون قد دبر أمراً. . ينقض على الكرة ويخطفها، أو يتكور على نفسه وينحني خافضاً رأسه وظهره ليخيف أحد الأولاد، ويتظاهر بعض المرات أنه يتطلع إلى جهة ما وهو يمشي حتى إذا اقترب أمسك بولدين، كل واحد بيد، وضربهما ببعض ضرباً رقيقاً.

كان الأولاد يألفون منه هذه المداعبات التي تتكرر كثيراً، وكانوا يتصرفون معه بمزيج من الحب والشفقة، ويتحمل منهم كل شيء؛ حتى إذا تعب تركهم وواصل سيره وهو يقول:

- انتهى اللعب، والآن نريد أن نتسبب.

يعود إلى حركته الثقيلة المرحة، فما يكاد يراه أحد من الكبار حتى يطلب إليه أن يذهب إلى بيت فلان، الذي يريده في ذلك اليوم ودون أن تتغير هيئة سلمان، يتحرك بخطوات بطيئة وهو يمر.

كان سلمان يقوم بكل الأعمال: يكسر الحطب، ينقل الأتربة، يحفر، ينفض السجاد وبعض الأحيان يزرع. لم يكن يتردد أبداً عن أي عمل يعمله، ويعمله بمزاجه الخاص. كان بطيئاً بحكم السن، وكان يحب أن يطيل فترات الراحة، وفي هذه الفترات يطلب الشاي ويدخن، ويجب أن يكون إلى جانبه أحد لكي يتحدث إليه، وفي الحالات التي يعمل فيها منفرداً، وبعيداً عن الناس، لم يكن يتردد في أن يترك العمل ويأتي من أجل أن يتحدث.. فإذا ضايقه أحد أو ألح عليه في إنجاز العمل، يردد تلك الكلمة التي أصبحت معروفة قبل أن يقولها:

- الله، الله جل جلاله، خلق الدنيا في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، فلماذا تريدون مني أن أكون أقوى من الله أو أحسن منه؟

فإذا ازداد الإلحاح عليه، قال كلمة أخرى أصبح الجميع يعرفونها ويتوقعونها منه:

- يا ناس العمر ينتهي والشغل لا ينتهي، ويصمت وهو يجيل في الوجوه نظرات طويلة متسائلة، ثم يواصل: يا الله كم عملت وكم شقيت، ولكن ما الفائدة؟

ودون أن يترك لأحد فرصة، يحاول أن يبدأ حديثه عن المهجر:

- سافرت وكان عمري خمساً وعشرين سنة. السفر يا ناس السفر غير هذه الأيام، أيامنا، كان صعباً وسهلاً، على الجبان صعب، وعلى المفلس صعب، وسهل على من يحب

المغامرة، خلاصة، سافرت وكان عمري أكثر من عشرين.

ظللنا بالبحر ما يقارب الشهرين. من ميناء إلى ميناء، وكل يوم نسأل متى نصل ولا أحد يعرف، والدنيا حولنا بحر، سماء وماء، ولا شيء غير ذلك. أكثر من مرة تعرضنا للموت، وفي ليلة من الليالي قلنا لا يمكن أن نصبح، صلّينا وبكينا، هللنا وكبرنا، لكن البحر جُنّ. الموج فوق الباخرة ثلاثة أمتار، أربعة، والباخرة صارت مثل الطير في الهواء، كل دقيقة تنقلب في جهة.. المهم، خلاصته.

ويرشف سلمان الشاي ويشعل سيجارة، وهذه القصة التي ملّها الكبار لفرط ما سمعوا بدايتها، ولكن لم يتركوا له فرصة إكمالها، ظلت تستهوي الصغار، ويطلبون في كل مرة أن يسمعوها كلها ومن جديد. فإذا بدأ الحديث استغرق فيه، وبسرعة ينسى البداية وينسى النهاية فلا يفيق من ذكرياته إلا على الصوت:

- ألم تنتهي قصة عنتر يا سلمان؟

ويجيب بصوته البطيء الواثق:

- ومين عنتر؟ لو رأى صاحبكم نصف الذي رأيته لفطس من الخوف. .البحر يا جماعة وهو هائج يركّع جد عنتر!

- وأنت.. هل فطست؟ هل ركعت؟

- شفت كثير يا جماعة، اسمعوا البحر وأمريكا يا جماعة مثل الكذب.

وبعد أن يهز رأسه دلالة الأسى والذكرى يقول بنبرة حزينة: تفو عليك يا دنيا.

وينصب عليه الصوت مثل ماء بارد:

- قوم لشغلك أفضل من هذه السوالف.

ويتفل على الأرض بحقد، ثم ببطء يقوم، كان يجر خطواته، وكأن الذكريات تسحبه إلى البعيد، ويجد نفسه مضطراً لأن يقول شيئاً قبل أن يبدأ من جديد. يلتفت فجأة ويصرخ:

- الذي دار وشاف لا يشبه الثور المعصوب العينين، وأغلب الناس هنا الواحد منهم مثل عصا القمح لا يتحرك من مكانه.

- تحرك، كسّر الحطب الآن واترك هالسوالف.

- وإذا لم أتحرك؟ ثم يغير لهجته ويضيف بأسى: الشغل يا جماعة مزاج، وإذا لم يعجبكم شغلي فتشوا عن غيري، الكلاب لا تموت من الجوع.

وأغلب الأحيان يطيب أحدهم مزاج سلمان بكلمات رقيقة. كانوا يقولون له كلمات حلوة تستحثه على أن ينسى، ويعود إلى العمل، لكن لا يمضي وقت قصير، حتى يرجع مرة أخرى للسوالف.

ظلت هكذا طبيعة سلمان لا تتغيّر، والناس في الحيّ يحتملون هذه الطبيعة ولا يؤذيهم أن تكون جزءاً من العلاقة

بينهم وبينه، فما داموا لن يدفعوا له إلا أجراً بسيطاً، وما داموا قادرين على أن يؤجلوا هذا الأجر، فليعمل سلمان بأي طريقة يشاء.

وحتى المواعيد التي كان سلمان يوافق عليها بصعوبة، في بداية كل عمل، والتي تكون نتيجة مناقشات طويلة يجبر الناس على الخوض فيها، لم يكن ملتزماً بها.

كان إذا رأى كومة من الحطب يتمعن طويلاً كأنه يريد أن يشتريها، يقلب الأعواد باهتمام، ينظر إلى الكوم من جميع الجوانب، يسأل عن الوزن وعن عمر الحطب، حتى إذا استوفى المعلومات، يسأل:

- كم يوم تتصور أنه يكفي لتكسير هذا الحطب؟

- يوم واحد، وأكثر شيء يومان!

- أقشرٌ هذا أم حطب؟

- حطب يا سلمان، حطب، كم يوم تحتاج لتكسيره؟

- لو أردت أن تكسره أنت، فكم يوماً تحتاج؟

- يوماً.. وأكثر شيء يومين!

- إذا كنت تستطيع ذلك فلماذا تريدني أن أكسره لك؟

وبعد لحظة يضيف: أراهن أنه إذا كسرت هذا الحطب في جمعة أعطيك كل ما أملك.

- قل.. كم تريد وخلصني؟

- ثلاثة أيام.

- اتفقنا.

ويشعر أنه تسرع، إذ لا يلبث أن يعيد أسئلة من شأنها أن تعطيه فرصة إضافية:

- السنديان أقسى حطب خلقه الله.. وهذا كله سنديان، وأنا اليوم مريض لا أستطيع أن أبدأ بهذه العفاريت.

وبعد فترة صمت طويلة يضيف:

- إذا كنت توافق على أربعة أيام ابدأ من الآن.

- اتفقنا.

وتنتهي الأيام الأربعة ومن كوم الحطب ما يزال الكثير، فإذا سئل سلمان، يقول:

- أنا يا جماعة لي مزاج في الشغل، لا أحب أن أسلق الشغل سلقاً.. تكسير الحطب يحتاج إلى إتقان، إلى ضمير، وأنا لا أفعل كما يفعل غيري، طب.. طب وينتهي الأمر.. يجب أن توضع الحطبة بشكل صحيح وأن تكسر بحق ورب، وإلا..

خلال هذه الفترة يكون سلمان قد نفض كل ما عنده من سوالف، فإذا اعترض أحد يقول:

- يا جماعة وقت السوالف على حسابي.. حطبكم سأكسره كله، الدنيا ما انتهت بعد، ماذا تظنون؟

- والشتاء والمطر يا سلمان؟

- المطر خير.. وأنا الذي أقف تحت المطر.

وبغضب يأخذ صوته لهجة الدفاع:

- ويجب أن تسألوني كيف اكتشفوا أمريكا.

- والحطب المبلول يا سلمان؟

- يوم أو يومان في الشمس وينتهي كل شيء.

- وهل سندخل الحطب إلى الدار ونخرجه مرة أخرى؟

- أنا أخرجه، ولا أريد أجرة على ذلك.

كانت حياة سلمان في الكلام، فإذا لم يجد من يكلمه تعكر مزاجه تماماً، وبدأ باضطهاد الحيوانات ومخاطبتها. كان يرمي الكلاب بالحجارة، ويمسك القطط ويربط بأذيالها خيوطاً في نهايتها حجارة، ويشتم الحمير والثيران وكل خلق الله، فإذا تعب من كسر حطبة أو اثنتين، ثم جلس في الظل يدخن، لا ينسى أن ينبش في جيبه الداخلي، لكي يستخرج الصور أو الحاجات الأخرى فيقلبها ويتمعن فيها، حتى إذا انتهى من ذلك قام إلى الماء وإذا وجده حاراً لا يشرب ويحب أن يستبدله بماء جديد بارد.. وهذا معناه أن يدق الباب، أن يدخل وتكون فرصة لمواصلة الحديث:

- لساني يا جماعة صدّا.. لا مرحبا ولا الله يعطيك العافية.

- الله يعطيك العافية يا سلمان.

- مروا، راقبوا زرعكم، انظروا كم أنجزت من شغل، كلمة حلوة.

- أنت وضميرك، اشتغل قدر ما تستطيع.

- المهم أن أراكم. . الإنسان بدون ناس لا يساوي شيئاً. الواحد إذا لم ير الناس. . ينهبل. يجب أن يتحدث الإنسان، أن يستأنس.

وتبدأ القصة من جديد:

«الناس في أمريكا نوع ثانٍ.»

ويصمت قليلاً تاركاً المجال لأن يسألوه، فإذا لم يسأله أحد، تابع من جديد:

- الناس يا جماعة في أمريكا، نوع ثان، مجانين، الواحد لا ينظر في وجه الآخر، لا يتكلم مع الآخر، وهذا جعل الناس تنهبل. في أمريكا ألف مستشفى للمجانين. كل يوم يجرون واحداً جديداً إلى المستشفى لماذا؟ كل واحد هناك يعيش لوحده، لا يلتفت إلى أحد، ولا أحد يلتفت إليه، وأنا لولا أني كنت أتحرش بالناس وأجبرهم على الكلام، لما رأيتم أمامكم الآن سلمان. . !

ويبدأ سلمان أحاديثه التي رددها أكثر من مرة، ويستعمل كلمات إنكليزية تعلمها في أمريكا، لكن لفرط ابتعاده نسي الكثير، وكلماته الإنكليزية كانت مثار اهتمام الشباب الصغار الذين بدأوا بدراسة اللغة الإنكليزية، كان هؤلاء يفتشون عن سلمان ليستعيد معهم كل الكلمات التي حفظها أو التي يتذكرها.

خلال فترة معينة، ازدادت رغبة سلمان في الحديث، وأصبح يفضل أن يتحدث إلى هؤلاء الشبان، من خلال الرشوة التي يقدمها لهم بالكلمات الإنكليزية التي يبدأ بها الحديث.

تحدث سلمان مرة.. قال أشياء كثيرة:

«سموني في أمريكا سلمون.. سلمان لا يعرفونه هناك. كنت بائعاً متجولاً، أشتري القماش من المدينة وعلى دراجة قصيرة أدور، ظللت أدور سبع سنوات، وفي النهاية لم أطق أن أعيش أكثر من ذلك، وما جمعته من دولارات ضاع، وضاعت حياتي. تزوجت إمرأة مطلقة، وعدتني أن تفتح لي متجراً صغيراً، وبعد الزواج طلبت إليها أن نفتح المتجر قالت، أنت لا تحب العمل قدر ما تحب الكلام، وبعد فترة طلقتني، وبدأت من جديد أعمل في مطعم، كنت أغسل الصحون في الليل والنهار، الصحون كفر، تلال لا تنتهي، حتى جمعت أجور العودة، وعدت.

افهموا مني ياجماعة؛ أمريكا كلها مجانين، ليس في أمريكا أحد إلا مجنون.. يركضون، يركضون، حتى في النوم الواحد منهم يصرخ ويحلم أنه يجمع دولارات أكثر.. وتصوروا بعد أن يجمعوا الدولارات يموتون. ما فائدة هذه الأموال كلها؟ لماذا لا يجلسون بهدوء ويتحدثون مثل الرجال؟ لماذا لا يكفون لحظة واحدة عن الركض؟

قلت لكم مجانين وتضحكوا.. وأنا أقسم لكم بالله إني لو لم أرجع لأصبحت مجنوناً. لقد انتهى سلمون منذ اللحظة

التي وضعت فيها قدمي على الباخرة وقررت العودة. . لطمت بحاراً وهو يقول سلمون، قلت له سلمان. . سلمان ولا أريد اسماً غير اسمي».

فإذا فاضت اللذة ووصلت إلى درجة النشوة، بدأ سلمان يشتم:

- الله يلعن اليوم الذي سافرت فيه. أحسن أيام حياتي ضاعت مني هناك، وعدت يداً من أمام ويداً من خلف، لم أوفر شيئاً، وكل شغلي راح ثمناً للطعام والملابس القديمة. .

فإذا سأله أحدهم عن الناس الذين هاجروا وأصبحوا أغنياء، كان يجيب:

«كذب. . كله كذب، وإذا حصل شيء صدفة، واحد من كل مائة ألف، والناس ينسون المائة ألف ولا يتحدثون إلا عن الواحد، وهذا الواحد يمكن يكون سرق، نهب، حتى جمع الفلوس، أما إذا أراد الإنسان أن يكون شريفاً فإنه لا يجمع شيئاً، الذي ليس معه شيء لا يمكن أن يجمع شيئاً، وكل ما تسمعونه عن الأغنياء كذب. اسألوا سلمان. سلمان لف ودار، شاف كثيراً. . تصوروا كانوا يجمعون الموتى بالسيارات، والناس ينامون في الشوارع. . صحيح في أغنياء، لكن الواحد منهم لا يبول على يد مجروح»

* * *

ويظل سلمان يواصل حياته. يغيب عن حيّنا فترة، ولكنه

يعود، دائماً كان يعود. والناس ينظرون إليه بحب، ويطلبون إليه بحب، يطلبون إليه أن يقوم بأعمال كثيرة، مقابل أجر بسيط، وهذا الأجر لا يدفعونه إليه إلا في نهاية الشهر، أو بعد وقت طويل، وسلمان لا يعترض ولا يحتج.

كان يقول بكلمات حكيم:

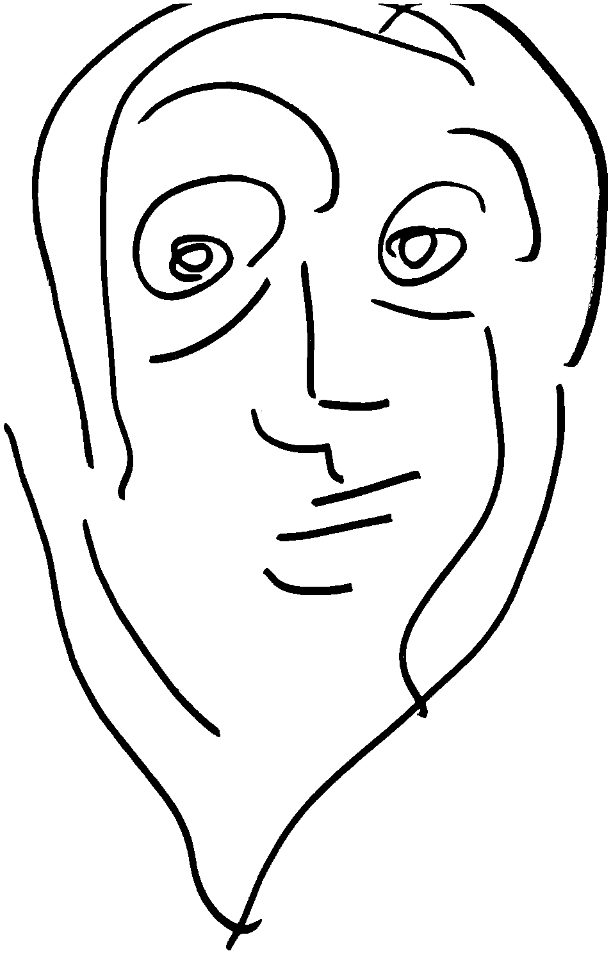
- لا أريد شيئاً. . المال وسخ الدنيا، ولم يبق لي إلا أيام قليلة وأمشي، المهم السيرة الحسنة، الكلمة الحلوة. . أما المال فيأتي ويروح.

ظل الأمر هكذا. .

ذات يوم، وسلمان يسير في حيّنا بطيئاً مستغرقاً، ويقول الذين رأوه، إنه كان يغني، إذا بسيارة مسرعة تصدمه، فيسقط وتنزف دماؤه. . ثم يموت. . آخر شيء كنا نراه كومة مغطاة بأوراق الجرائد بانتظار انتهاء التحقيق.

وعم الحيّ ولفترة طويلة شعور بالأسى الموجع، لأن أحداً لم يسمع من سلمان قصته كاملة.

رفيق



الأيام الأخيرة من الشتاء. بَرَدى(*) العجوز اللاهث طوال الصيف، يتدفق الآن. يعربد على الضفتين ويغرق مساحات واسعة. الوقت قبل الغروب بساعة. الشمس تتدحرج على الأرض الخضراء والأشجار فتخلق دفئاً ناعماً لذيذاً، لكنه لا يدوم، وكل شيء يركض وراء الشمس يريد أن يمتص منها قطرات قبل أن يأتي الليل ويحمل معه لسعة الأرض الرطبة والسماء البعيدة التي توقفت منذ أيام عن المطر.

كان انتظار طيور السمّن في الزوايا الرطبة المعتمة جنوناً، لأن نداء الشمس كان يوشوش في فترات الزمن الممتدة بلا انتهاء؛ فيدفع الإنسان والطير، وحتى الحشرات الصغيرة، إلى الأرض المفتوحة، بعيداً عن أشجار الحور ولبدات الشوك البري الكثيفة المتعالية.. فلا يجد الإنسان نفسه إلا وهو ينسل، دون أن يحس، فتكون خطواته أول الأمر قصيرة متأنية، ونظراته تطاول أشجار الحور، ثم يتغير كل شيء: تصبح

(*) نهر بَرَدى.

الخطوات واسعة، وتصبح النظرات مصوّبة إلى الحفرة والأرض التي تنفذ منها.

سرت قريباً من ضفة النهر: لم أكن أتوقع طيراً، ولكن ما كدت أطل من وراء لبدة شوك عالية حتى وجدت سرباً من البط يختال على صفحة النهر ويغمس أجنحته، التي ترفرف بين لحظة وأخرى، في أشعة الشمس. توقفت. نظرت إلى السرب بعصبية لم أستطع أن أكتمها أو أداريها، وبسرعة صوبت بندقيتي، وأطلقت.

رأيت بطتين ترفرفان فوق سطح الماء، تحاولان أن تطيرا، أن تسرعا، لكن الموجات الصغيرة تدفعهما، تقف أمامهما مثل سد. وبخفقات عصبية خاصة حاولتا الطيران مرة أخرى، لكن الموج الصغير كان يشدهما.. لقد أصابت طلقتي هاتين البطتين. جننت من الفرح. إن بطة واحدة من هذا النوع الترابي على خضرة يعادل عشر سمنات.. لقد ظفرت، وليس أمامي إلا التقاطهما.

دفعت الأمواج الصغيرة البطتين في التيار.. بدأت تقتربان، كنت أزداد فرحاً، وأنا أراهما تقتربان، وأنا أراهما تفقدان توازنهما ولا تستطيعان المقاومة، لكن ما كادتا توازيان مكاني حتى انفجرت في رأسي الحيرة المجنونة: كيف أستطيع التقاطهما؟

النهر العجوز الذي يجف فترة طويلة من السنة، والذي يخجل من نفسه حتى يفضل أن يبتعد، أو يغور، يقف الآن

كبيراً متدفقاً، والتيار يدفع أمامه بقايا الأغصان، والماء بارد بارد لدرجة أن أي مجنون لا يفكر في أن يقترب منه.

ركضت على الضفة، سبقت التيار والبطتين. كنت ألتفت حولي، أريد أن أجد وسيلة ما لالتقاطهما.. تعثرت بجذع شجرة مقطوع، انتزعته وركضت، وقفت على الضفة ومددت الجذع لعله يستطيع أن يوقف البطتين أو يجرهما.. لكن التيار كان قوياً، وبدأ يدفع الجذع ويسوقه أمامه، والماء عميق بارد.. في لحظة بدا لي كل شيء مستحيلاً.. ومن جديد بدأت أركض، وقفت في مكان رأيت المجرى فيه أكثر ضيقاً، عامَ الجذع على الماء لكن الماء يدفعه، والبطتان انقلبتا، واحدة على ظهرها، والأخرى على جنبها، كأنما فارقتا الحياة، فقدتا كل قدرة على المقاومة.. وتصلان قريباً مني.. لكن الجذع قصير لا ينفعني في شيء، وتغوص إحدى قدميّ في الماء، أنتزعها بصعوبة، تمتلىء بالطين والماء، وأركض من جديد.. أقف، أمد الجذع، أجده قصيراً والبطتان تبتعدان، تصبحان أقرب إلى الضفة الثانية.. وتمتلىء نفسي بالعذاب. أشتم، أشتم بصوت عالٍ وبكلمات بذيئة:

«اقتربي أيتها الخنزيرة.. اقتربي» وتبتعد «وأنت يا بغي، لماذا تبتعدين؟ أتخافين؟ اقتربي وسوف ترين كل شيء بعينيك الحولاء».. الماء يتلوى، يدور، الجذع في يدي يهتز، ينحني، وأركض من جديد «اقتربي من هنا يا حلوتي.. لا تسمعي كلام الخنزيرة التي تركض أمامك.. سوف أكون بك

رفيقاً يا داعرة» وتركض وأركض. .

وفجأة أجد ثلاثة رجال. كان اثنان منهم منبطحين على الأرض، واحد ينام على بطنه، والآخر يسند كوعه إلى الأرض ويضع رأسه على راحته. . أما الثالث فكان جالساً. فجأة اكتشفتهم؛ واكتشفت أنهم ينتظرونني. لقد رأوا البطتين على سطح الماء، وسمعوا الشتائم، التي تسبقني تشق طريقي بين أشجار الحور.

لم أستطع أن أفعل شيئاً. امتلأت بالحيرة والتردد. كنت أريد أن أتابع الركض وكنت أريد مساعدة من نوع ما. ودون أن أفكر أشرت إلى النهر، وكأني ألتمس عذراً عن الشتائم والركض المجنون والحيرة. . وبهدوء أصم نظروا إلى النهر ونظروا إليّ، وكأني رأيت رؤوسهم تهز دلالة الفهم والموافقة.

وبصوت أبح هادئ، سمعت الرجل النائم على بطنه، يسألني:

- أين رفيقك؟

وببلاهة رددت وراءه السؤال:

- رفيقي أي رفيق؟

- أليس معك رفيق؟ سألني بنفس الهدوء والصوت المبحوح.

- معي رفيقان تركتهما هناك. وأشرت إلى البعيد، دون أن ألتفت.

- هل يمكن أن يترك الصياد رفيقه؟

تملّكني الغضب. كان سؤاله هازئاً متحدياً. كان يسخر مني. وتصورته يريد أن يطردني بسرعة لكي يغنم البطتين. وامتلأت تصميماً في تلك اللحظة لأن أفعل شيئاً، كنت أتابع التيار لأرى أين أصبحت البطتان، وكنت أريد أن أنفّس عن الخيبة التي سرت في جسدي مثل تيار كهربائي.

قلت:

- كيف أستطيع التقاط البطتين؟

قال دون أن يغير لهجته، وقد بدت لي في تلك اللحظة معادية ساخرة:

- إذا لم يكن معك رفيق.. فلا تحاول. وحتى لو حاولت فلن تستطيع شيئاً.

وبنبرة معادية حادة سألته:

- وماذا يستطيع رفيقي لو كان معي؟

وقبل أن أسمع جوابه اندفعت بأقصى سرعة. لقد اشتبكت إحدى البطتين بشجرة، ويمكن أن ألتقطها من هناك بسهولة. ركضت وأنا أصرخ.. «أين يمكن أن تذهبي أيتها القذرة» وبهدوء ملائكي ناعم أخرس مرت موجة صغيرة وسحبت البطة.. دفعتها.. فتحركت وانزلقت إلى التيار من جديد، وسارت مع التيار. صرخت «قفي أيتها القذرة. .أقول لك قفي» ولكن الشجرة أمسكت بصيدي واهتزت الأغصان من الريح والتيار.

بهدوء ذليل رجعت. كانت خطواتي صغيرة متعبة، وحذائي يمتلأ بالطين وأسمع صوت الماء يخضّ في داخله. بدا لي كل شيء ساخراً متحدياً. فكرت وأنا أرجع أن أتجاوز الرجال، أن أبتعد كثيراً عن ضفة النهر، أن أتجه اتجاهاً معاكساً، لكن شعور التحدي دفعني لأن أقول كلمة قبل أن أمشي. «لقد رأيتم أيها الرجال، إن بطتين تسبحان على وجه الماء، قد قتلتهما بطلقة واحدة.. وليس ذنبي أني لم أستطع التقاطهما..» كنت أريد أن أقول شيئاً من هذا قبل أن أترك الرجال وضفة النهر والبطتين!

ما كدت أقترب، حتى رأيت الرجل الذي كان نائماً على بطنه ينقلب بخفة، ويضع يديه تحت رأسه كأنه يسنده. وينظر إليّ وأنا أجرّ خطواتي. وسمعت صوته مبحوحاً دافئاً هذه المرة، وهو يقول:

- تفضل.. تعال يا صاحبي.

ووجدت نفسي أقترب. كانت مشاعري مختلطة متداخلة. مشاعر الخيبة والحقد ورغبة الانتقام.. وبجلافة قاسية رميت بندقيتي، وجلست. أخرجت علبة السجائر، أريد أن أدخن سيجارة، ولكن يد الرجل امتدت إلى علبة سجائري بسرعة وأغلقتها.. وقبل أن يترك لي فرصة للسؤال، قال لي:

- سوف ألفّ لك سيجارة.. انتظر لحظة، إن دخاننا أطيب بكثير من هذا الدخان.

ولم يترك لي وقتاً للاعتذار. انتزع من جيبه علبة معدنية،

وانتزع من دفتر صغير بنفس سريع محكم ورقة، وبدأ يلف سيجارة بمهارة وخفة. وما كدت ألتقطها وأنفث أول نفس، حتى رأيته ينظر إليّ ويهز رأسه وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه.

كان وجهه مجدوراً، أسمر، وعيناه ذكيتين تمتلئان بشيء أكثر من السخرية. . إنه المكر، ولم يدعني أقول شيئاً. . إذ وجدت ابتسامة تتسع أكثر من قبل ويسألني:

- لماذا أنت وحيد؟ أين رفيقك؟

- رفيقاي في الجهة الثانية.

أجبته بعصبية، وكأن هذه الفكرة بدأت تثيرني، وأريد أن أضع حداً لسخرية الرجل. قلت:

- وهل يجب أن يمشي الصيادون جنباً إلى جنب؟

قال وقد انتهى من لف السيجارة، وقدم العلبة للرجل الذي يقابله:

- اسمع يا ولدي. .أشعل سيجارته وتابع: الصياد بدون كلب لا يساوي شيئاً، والغازي بدون ديب لا يرجع بشيء.

تركني لحظة والتفت إلى الرجلين اللذين اعتدلا في جلستهما، وقال كأنه يتذكر:

- هذه أول مرة أحكي لكم القصة بكاملها، قلت لكم من قبل أني سجنت، لأني قتلت اثنين من العشيرة، وقلت لكما إن القتل كان بسبب خلاف وقع بيننا، ولكن لم أقل لكم عن ذلك

الخلاف شيئاً. . والآن أرى هذا الرجل يفقد صيده، لا أعرف لماذا عاودتني تلك الذكرى. . إن الإنسان يتذكر كثيراً وينسى كثيراً. . المهم الآن أستطيع أن أحدثكم عما حصل:

مرت ثلاث سنوات من الجفاف على عشيرة بني خالد، فقدت خلالها كل شيء. حتى أصبح الماء أعز مطلب يمكن أن يصله الإنسان. . وفي تلك الفترة رجعت عادة الغزو بين القبائل بعد أن كادت تنقرض، والغزو، في تلك السنة كان نتيجة الجوع، لا لسبب آخر، كما كان من قبل.

خرج بعض شباب العشيرة للغزو. وخرجت أيضاً. لم يكن معي سوى رغيفين من الخبز وقطرات من الماء. . وكنت أعرف أن عشيرة بني هانىء على مسيرة يوم، وأن لديهم إبلاً وماءً، وقلت لنفسي «لا أرجع حتى أغنم».

في الطريق، رأيت ذئباً لم أخف منه، ولكن أحسست أن مصيبة سوف تلحقني من هذا الذئب. كان جائعاً، ولا يريد أن يبتعد عني، وقدرت أني إذا نمت فلا بد أن يأكلني. احترت في أمري. رميته بالحصى، ابتعد قليلاً، ولكنه عاد من جديد. رميته مرة أخرى، ولم يبتعد كثيراً هذه المرة. كان ينظر إليّ بتوسل. لم يكن خائفاً، ولم يكن شرساً.

في مرحلة من الطريق، والذئب يسير موازياً لي، وليس بعيداً عني. أخرجت رغيفاً، وبدأت آكل. اقترب، ونظر إليّ بتوسل، أما الحصى التي رميته بها فلم يكن يبالي أن تصيبه. ولم أجد أمامي سوى أن أقطع كسرة من الخبز وأرميها له، وما

كاد يلتهمها حتى شعرت أن شيئاً مفاجئاً يولد بيننا. اقترب مني هذه المرة، وبدأ يمرغ جسده على الرمال، دلالة الشكر والثقة. ودون أن أحس وجدت نفسي أقسم الرغيف بيننا فأرمي له بالنصف وآكل النصف الآخر.

بهذه الطريقة أصبحنا رفيقين. اقترب مني كثيراً، حتى كاد يلامسني وأصبحت نظراته لي تمتلىء رضىً.

عند الغروب اقتربنا من مضارب عشيرة بني هانىء؛ ربضت هناك وربض عند قدمي، ولما أخرجت الرغيف الآخر، قسمته بيننا، وأكلنا. وشعرت عندها أننا أصبحنا رفيقين بحق ويمكن أن نغزو معاً ونعيش معاً.

تعرفون.. أن أي فارس لا يستطيع أن يحضر إذا كان وحيداً أكثر من حمل.. ولكن في تلك الليلة، والذئب رفيقي، استطعت أن أغنم تسعة جمال.. لقد سقتها أنا والذئب ورجعنا إلى مضارب بني خالد غانمين سالمين.. وقبل أن أدخل إلى أهلي وأبشر بالرزق الذي حصلت عليه، ذبحت ناقة وتركت أحشاءها للذئب.

وفي الليل، وقد عمّ الفرح، وشبت النيران، أراد الرجال أن يسمعوا قصتي، وكانوا حتى تلك اللحظة يفتحون عيونهم دهشة واستغراباً، أن أكون استطعت وحدي أن أغنم تسعة جمال.

وما كدت أقص عليهم القصة، وأذكر لهم أني لم أكن وحيداً، وإنما كان معي رفيق حتى علت الدهشة وجوههم!

- «رفيق. . ومن يكون رفيقك» قلت لهم إن ذلك سر، لا أريد أن أبوح به. سألوا مرة ثانية وألحوا في السؤال. ولا أدري كيف أخطأت، وقلت لهم، إن رفيقي في الغزو كان ذئباً، ولكي أبعد أية شكوك يمكن أن تساورهم، قلت لهم، «لقد ذبحت له ناقة. . وهو الآن يأكل أحشاءها. . وإذا لم تصدقوا يمكن أن تذهبوا إلى التل الغربي وتشاهدوه هناك».

ومرت ساعة من الزمن ونحن نسمر، نأكل، وقد سيطرت علينا روح الفرح والأنس، وإذا باثنين من أولاد عمي يدخلان علينا، بعد أن غابا بعض الوقت؛ كان يبدو عليهما رضىً غريب، وما كدت أنظر إليهما وتلتقي عيوننا، حتى سمعت أحدهما يقول:

- يا فلان. . خلصناك من رفيقك.

- كيف؟

- إذهب، وشاهد بعينك.

- ماذا تريدون مني أن أشاهد. . ؟

- رفيقك.

- أين؟

- في مكانه لا يتحرك، لقد قتلناه.

ودون أن أفكر، انتزعت بندقية كانت موجودة في المضرب وأطلقت النار على ولديّ عمي وقتلتهما. .

وهز الرجل رأسه يحاول أن يبعد تلك الذكريات، أدار

جلسته ونظر إلى الماء، ثم بحصى صغيرة، التقطها من الأرض رمى شجرة كانت على الضفة الأخرى من النهر، وتابع يقول:

- الله.. ما أقسى الإنسان وما أغبى تصرفاته، لقد قتل الجميع بدون معنى، هم قتلوا الذئب، وأنا قتلت الرجلين.. كان من السهل أن يعيش الجميع، ولكن أي شيطان دفعهما إلى قتله، وأي شيطان دفعني إلى قتلهما، فحتى هذه اللحظة لا أعرف.. لقد نسيت كل شيء وأنا في السجن، ولكن الإنسان لا ينسى إلا بشكل مؤقت، إذ سرعان ما يتذكر!

والتقط علبة الدخان المعدنية، وبسرعة ومهارة لف سيجارة وقدمها إليّ، وقال وقد تغيرت لهجته فأصبحت هادئة مبحوحة:

- أفضل ألف مرة، يا ولدي أن يكون معك دائماً رفيق.. وأعتقد أن خير رفيق للصياد هو الكلب.. الكلب يستطيع أن يلتقط لك البط، والسمن، ويستطيع أشياء كثيرة..

عندما نهضت، أريد أن أصل إلى الكمين، حيث القمة والرطوبة وأشجار الشوك، وجدت أن المسافة أصبحت بعيدة لدرجة أن السمن يكون قد أغفى في أعشاشه؛ فقلبت البندقية، بحيث أصبحت فوهتها إلى أسفل، وبدأت أسير بخطوات بطيئة حزينة، أريد أن ألحق بالصيادين، وكنت أفكر تلك اللحظات بالكلب والبط والذئاب.. وأخيراً الإنسان!

مطعم المحطة



لم يبق أمامنا سوى مطعم المحطة. قال ذلك وهو يهز رأسه بتحدٍّ، ثم ابتسم وقال: حاولوا.

مررنا على عدة مطاعم في المدينة؛ ابتدأنا بمطاعم الدرجة الأولى، ثم مررنا على مطاعم الفنادق، ولكن الابتسامات الصغيرة المرسومة كانت تردنا قبل أن يتم السؤال. وفي بعض الحالات لم نكن نتلقى رداً، كان خادم الفندق ينظر إلى ساعته ثم إلى وجوهنا، ويهز رأسه، ويقلب شفتيه كأنه يريد أن يؤنبنا أو كأنه يسخر من جهلنا، ولكن إصرار مضيفنا، في محاولة لأن يكون كريماً حتى آخر لحظة، جعلته يحاول دون أن يشعر بالهزيمة، إذ ما زال يأمل أن يجد مطعماً بعد أن تجاوزت الساعة الثالثة؛ وظللنا نسير متعبين جائعين، نطرق باباً بعد آخر، وعند كل باب نلقى نفس الجواب، ولم يبق أمامنا أخيراً، سوى أن نقرر بحزم الذهاب إلى المحطة، أياً كان مستوى الأكل وأياً كانت رغبات مضيفنا، إن مطعم المحطة لا يغلق أبوابه.. القطارات تأتي وتذهب في كل لحظة، ومقهى المحطة، أو المطعم الداخلي مليئان حتى الدرجة القصوى،

بشر جاؤوا يحملون حقائب ورزم ملفوفة، وجرائد. بشر بينهم الأطفال والنساء، أشكال ليس لها بداية، وليس لها نهاية؛ وفي كل الأوقات.

عندما دخلنا دهمتنا رائحة خاصة، رائحة الانتظار والدفء الثقيل، وجالت عيوننا تبحث عن مكان، كان الناس كثيرين إلى درجة يتصور الإنسان أن جميع من في المدينة تجمعوا في هذا المكان، يريدون أن يسافروا، أو أن يستقبلوا مسافرين حان وقت وصولهم. . كانت نظراتهم قلقة، وحركاتهم تتسم بالارتباك، يجلسون، ولكنهم يضعون بعض الحقائب الصغيرة على الأرض، وعلى الكراسي، ويركضون وراء الأطفال بخوف خشية أن يأتي القطار في وقت غير مناسب، فيتعذر عليهم أن يجمّعوا أنفسهم وأمتعتهم في الوقت الملائم للسفر، وكان البعض يقرأون جرائدهم بنظرات غير مطمئنة، أو لا تلبث نظراتهم أن تمتد بين فترة وأخرى إلى ساعة الجدار الكبيرة التي تتحرك ببطء، ويرهفون السمع إلى نداءات مكبر الصوت الذي يعلن قدوم قطار أو سفر قطار آخر، ورغم القناعة بأن الوقت لم يحن بعد، فقد كان ينتابهم شعور أن خطأ ما سيقع، ربما تأخر قطارهم، ربما نسوا شيئاً، ربما لم يجدوا مكاناً. . كانت مثل هذه المشاعر تملأ جو المحطة؛ إن خطأ ما سيحصل. . تقرأ ذلك في الوجوه والتصرفات.

دخلنا. . نظرنا إلى المقهى، كان يمتلئ بالدخان وأصوات الناس والحركة المضطربة التي لا تتوقف، توجهنا إلى المطعم،

والمطعم جزء من المقهى، جزء لا يفصله شيء، سوى الطاولات التي وضعت عليها شراشف كانت بيضاء نظيفة، في وقت ما، ولكن لم تعد كذلك، وضعت فوقها صحون وملاعق وكأنها تشعر أي إنسان، أن من سيجلس هنا عليه أن يأكل. . فإذا كان شبعاً فليفتش عن مكان آخر، أي مكان، سواء أكان في المقهى أم خارجه.

كانت طاولات المقهى مشغولة كلها، وليس هناك أي طاولة فارغة، ومن النظرة الأولى يحس المرء أن الجالسين على الطاولات لا تجمعهم أية علاقة، التقوا بالصدفة، دون مواعيد مسبقة ودون أن يكون بينهم أي شيء مشترك، هذه هي المحطة، حتى القطارات التي ينتظرونها قد يتجه بعضها إلى الشمال وبعضها الآخر إلى الجنوب، كان هذا واضحاً من التصرفات المتفاوتة، من النظرات إلى الساعة، وإلى الجريدة، نظرات تتسم بالوقار والهدوء أو بالعصبية العجولة التي تريد أن تنهي الدقائق العشرين المتبقية لوصول القطار حتى يحملوا حوائجهم ويستقروا بعدها. إن صفة كانت توحّد بين الجميع، هي الانتظار!

تجاوزنا بأنظارنا المقهى، وتقدمنا بضع خطوات نريد أن نجد مكاناً في المطعم، كانت الطاولات مشغولة، أغلب الجالسين لم يكونوا يأكلون، كانت أمامهم أقداح البيرة، وصحونٌ فيها بقايا أطعمة، وبعضها كان خالياً، تماماً، ولكن لم نجد أية طاولة فارغة.

وقفنا في المطعم، نظرنا بأمل أول الأمر، ثم بدأ يتسرب إلينا الشك في أن نجد طاولة فارغة، وبعد تجاوزنا هذه المرحلة، بدأنا ندقق النظر، نحاول أن نكتشف من يريد أن يغادر طاولته، نحاول ذلك من خلال أمور صغيرة، قد لا يدركها الإنسان في الأحوال الطبيعية، من يحاسب الآن، من انتهى من أكله؟ وأمور أخرى تجعلنا نشعر أن شيئاً يجب أن يحدث. ولكن بعد النداءات العجولة المتواصلة التي نسمعها، وننظر لعل أحد هذه النداءات يحرّك البشر.. ولكن الكتلة الكبيرة من الناس التي تجلس بقلق مستمر، لا تريد أن تقوم، وفي الوقت نفسه لا تمارس الجلوس بحرية. نلحظ ذلك من أقداح البيرة التي يطلبها بعض الناس، بعد أن ينظروا إلى ساعاتهم، ثم إلى ساعة الحائط الرئيسية، ونلحظ أيضاً من أكواب القهوة، ومن طريقة الأكل البطيئة، ومن تقليب الجريدة الذي يبدو عصبياً سريعاً أحياناً.

كنا نريد مكاناً، أي مكان، نظرنا مرة أخرى إلى المقهى، إلى الجزء الأمامي، نحاول أن نفتش عن طاولة فارغة، بعد أن عجزنا في العثور على طاولة في المطعم، ولكن لم نصل إلى نتيجة، تمزقت حركتنا، ولم نعد متماسكين قريبين من بعض، وكأن شعوراً بالضيق يتجاوز الرغبة في الأكل يسيطر علينا.

بعد قليل سيتحرك بعض الناس، لا بد أن يتحركوا.. القطارات تصل.. القطارات تذهب، ولكن كتلة الناس تزداد، والمنتظرون يزدادون، وقد اتخذوا أماكن استراتيجية متنوعة،

عند الباب، وسط الطاولات، في الزوايا، في أماكن كثيرة، ونلاحظ حديثاً من نوع ما يدور بين بعض المنتظرين والجرسونات، وتستطيع أن تفهم بوضوح أن الحديث يدور بالتحديد حول المكان.. وتستطيع أن تقدر أن وعداً قد أعطي في هذه اللحظة، وتركز النظرات على طاولة، على أشخاص معينين.. وتزداد هذه النظرة تركيزاً عند كل صوت يصدر من الميكرفون يعلن عن وصول قطار أو قيام قطار وتحس أن حركة ما قد غيرت في ترتيب الأشياء ولكنها مثل الموجة الخفية، تتحرك دون أن يحس بها، وبعدها تعود الموجة إلى مكانها، وتظل الطاولات مشغولة، مكتظة إلى درجة أن لا أحد يبدو أنه سيتحرك!

الانتظار، الرائحة، الدخان والأصوات، كانت أصوات عالية ولكنها متداخلة غامضة، لا يمكن أن تسمع شيئاً أو أن تفهم شيئاً؛ لم نكن نريد طاولة محددة، ولم نعد نريد أكلاً نريد فقط أن ننتهي من حالة الانتظار الطويلة المملة.

وقعت أنظارنا على طاولة في المطعم، كانت كبيرة، يجللها شرشف أبيض، ومجموعة من الصحون والملاعق والسكاكين، مصفوفة بنظام، وعلى رأس المائدة تجلس امرأة كبيرة السن، كانت تجلس على صدر الطاولة، تنظر إلى كل ما يجري، بدا أنها تنتظر أحداً.

كانت المرأة كبيرة السن، يصعب على الإنسان أن يقدر عمرها، هل تجاوزت الستين، السبعين..؟ هل هي دون

الستين؟ لا يمكن عن هذه المسافة أن تعطي تقديراً صحيحاً لعمرها، ولكن تحسّ أن نظراتها الصلبة التي تراقب كل شيء، كأنها تنتظر مجموعة ستأتي فوراً، ستدخل، بين لحظة وأخرى، تحس ذلك من النظرات، ولا أدري كيف تجرأ أحد أصدقائنا وتقدم نحوها وسأل إن كانت تسمح لنا بالجلوس معها.. بعد أن نظرت إليه نظرة متأنية طويلة، هزت رأسها دلالة الموافقة، وما كدنا نجد صديقنا يحرك يده ويدعونا إلى الجلوس حتى تنفسنا بعمق، شعرنا بالراحة.. لقد وجدنا أخيراً مكاناً، وبعد أن وجدنا المكان تطورت أفكارنا ومطالبنا.. أصبح علينا أن نختار الأماكن بشكل مناسب، وبعد أن تجاوزنا هذه المرحلة، بدأ الجوع يعوي في بطوننا.. وكأننا نسيناه لفترة. بدأنا نفكر بالبيرة، وبالأكل.

كانت قائمة الطعام موضوعة بعناية على الطاولة، وبعد أن استقر بنا المكان قليلاً، بدأنا نتساءل عن الأصناف التي يمكن أن نأكلها وأحسسنا باللعاب في حلوقنا، وبرغبات كثيرة، حول الحساء واللحم وأصناف أخرى كثيرة، ولكن كان مطلبنا العاجل في تلك اللحظة أن نشرب البيرة، وبهدوء يمكن أن نفكر بالأكل بعد ذلك، إن الأنواع الموجودة معروفة، ولكن يروق للإنسان أن يقرأ القائمة أكثر من مرة، أن يفكر ببعض الأسماء، وأن يتصور نفسه يأكل أصنافاً لطالما تمناها.

نظرت إلينا المرأة بإمعان، وكانت تقرأ وجوهنا، وكانت نظراتها دقيقة قاتلة، وعيناها تراقبان كل تصرف من تصرفاتنا.

لقد انصرفت تماماً عن مراقبة أي شيء سوى أن تتابع كلماتنا وأقوالنا. . وتنظر إلى الطريقة التي نتصرف بها، وشعرنا بمراقبة داخلية تجعل كل تصرف من تصرفاتنا مقيداً وثقيلاً. في لحظة لم يكن أحد قد رتبها أو أرادها وجدنا المرأة تقترح أن نأكل صنفاً معيناً. . وأضافت: هذا الأكل جيد وكميته وافرة، إضافة إلى أن أسعاره معتدلة. . ودون أن نناقش كثيراً وافقنا، أو وافق أغلبنا على اقتراحها!

وشربنا البيرة أولاً، ثم جاء الأكل، وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما تدخلت المرأة بشكل مباشر:

- إن بعض أنواع الأكل يطلبها الإنسان ليمتع بها ناظريه، وفي أحسن الأحوال، فإنه يطلبها لكي يأكل شيئاً منها، من أجل أن يفتح شهيته، أو أن يتغلب على الملل. .

كانت سلطة الكرنب تملأ الصحون الصغيرة، وكانت قطع البندورة موزعة على سطح الصحن، وما كدنا نبدأ بالأكل حتى اقترحت المرأة أن نهتم بهذه السلطة، ولم تنتظر، أضافت: إن أنواعاً عديدة من الفيتامين موجودة في هذه السلطة، ويجب أن نأكلها بكاملها. قبل أن نفكر بالأكل، كان حديثها أول الأمر لهذا الصديق الذي بدأ الكلام معها، ثم تطور ليكون موجهاً لنا كلنا. كانت تراقبنا كلنا: طريقة أكلنا، الأشياء التي نحبها وتلك التي لا نحبها، وبين فترة وأخرى تسرق نظرات إلى وجوهنا، وتجرأت وسألت إن كنا استسغنا الأكل؟ وما رأينا بالسلطة، ثم أضافت أن الأكل يجب أن لا ينظر إليه من ناحية

طعمه فقط، يجب أن ننظر إلى القيمة الغذائية الموجودة فيه، وطريقة إعداد الأكل، وأشياء أخرى.. وتابعت.. ونحن نسمع، ولا نسمع!

وهي كانت كمن وجد فرصته في الكلام.

إنها المحطّة، حديث عابر.. أناس عابرون.

ربما لم تأت



لا أدري لماذا اختار هذا الوقت ليتكلم، كان أمامنا أكثر من فرصة، وكنت كثيراً ما أغريه، لكن كل مرة حاولت ذلك، كان يبتسم، ويغرق في صمت لا يقوى أحد أن يخرجه منه، وحتى في صمته، كانت تقاطيعه تتكلم، أما هذا اليوم فقد بدا حزيناً أكثر من ذي قبل، لكنه حزن هادئ ودود، وعندما كنا نسير على شاطىء البحر، بدأ يتكلم، بدأ يعترف، كان يحس أن شيئاً يجبره على الكلام؛ إنني الآن أتذكر كلماته، أحس أن صوته ما زال يدوي بأذني، لكن كل شيء قد انتهى الآن! لو بقي دقيقة أخرى في تلك المدينة الملعونة، لوضع حداً لحياته، كان يشعر أن جو المدينة أصبح خانقاً دبقاً بحيث لا يمكن أن يطيقه، وجوه الذين يعرفهم أصبحت خطايا تطارده أينما ذهب. يجب أن يغادر، ليس مهماً تحديد المكان الذي يجب أن يغادر إليه، المهم أن يترك هذا الجو المعادي، وعندما ركب القطار، وألقى حقيبته الصغيرة في غرفة مزدحمة، أحس أنه أنقذ نفسه. إن الوقوف طوال الطريق أمر سهل يمكن احتماله، المهم أن يغادر هذه المدينة المعذبة. فتح النافذة، وألقى برأسه، كان

يتنفس بعمق وكان ينظر إلى كل الأشياء في الظلمة بألفة بالغة، لم ينم طوال تلك الليلة، وكان حديثه مع الآخرين سريعاً، يريد أن يخلص لنفسه، أن يفكر بالأشياء العزيزة عليه، أن يرتب أوقاته، أن يعمل شيئاً يحس أنه يخرجه من نفسه. كان يمكن أن يستمر في صمته، ولكن لا أدري لماذا اختار هذا الوقت بالذات ليتكلم، كان يتكلم بلسانه ويديه، والآن عندما أنظر إليه، وأرى هذه البقعة الزرقاء التي تحت عينه اليسرى، وأرى ابتسامة صغيرة تخيم على وجهه، أحس أنه ما زال يكمل القصة التي بدأها، لا أدري لماذا رفض الآخرون أن يركبوا في الباخرة الصغيرة التي وضع فيها، إنه لم يحتل غير مساحة صغيرة، وكان وجهه مغطى. وحذاؤه الذي يبدو من تحت الغطاء، كحذاء أي إنسان مشى في المطر، صحيح أن كعب الحذاء، قد ذاب قليلاً، ولكن يمكن أن يقاوم أكثر، وجواربه الرمادية المبتله، كان يبدو قسم منها وقد تركت على ساقه حزّاً أحمر رفيعاً. لقد كنا أربعة في المركب وكان يمكن أن يركب معنا آخرون، ولكن آثروا أن يركبوا في المركب الآخر، وانتظر بعضهم في الجزيرة الصغيرة؛ كنت أحب أن أنظر إلى وجهه بين وقت وآخر. كنت أريد منه أن يتكلم، أن يقول، والفتاة الشقراء التي كانت قد ركبت معنا في المركب، تبدو متعبة، وكانت دمعات صامتة قصيرة تنسرب منها بين لحظة وأخرى، كانت تشعر بالغثيان وارتمت بعد وقت قصير في أرض المركب، إنها لا تعرفه حتى تبكي عليه، كان بعيداً عن جو

معسكر الأصياف، والذين يعرفهم، كان يكتفي أن يحييهم تحية صغيرة عابرة، لم يكن مستعداً أن يتحدث مع أحد، وإذا اضطر في هذا الجو الصاخب أن يتكلم، كانت كلماته متقطعة سريعة، إنها تبكي أحداً آخر بالتأكيد، وهو الآن يذكّرها بهذا الآخر.

لم يبق غير ثلاث ساعات، إنه يريد أن يذهب ليراها، ليحدّثها هذا اليوم كما يحدّثها من قبل، كان يريد أن يعترف، لا يقوى على الصمت أكثر، إنه يحس تجاهها بشيء لا يعرف ماذا يسميه، إنه يحبها، ولم يقل لها إنه يكرهها، ولكنه كان يحس تجاهها بشيء لا يعرف تفسيره، يريد أن يراها، يريد أن يحدثها بأشياء كثيرة، يريد أن يفتح لها قلبه، ولكن عندما يراها تهرب الكلمات، يشعر باضطراب، ولا يقوى على أن يقول لها إنه يحبها، إن هذه الكلمة كبيرة ويخشى أن يخطىء، وقد لا يكون شعوره نحوها هو الحب. ولكن ليس الكره على أية حال، وعندما يفترق عنها بعض الأحيان وقد أغضبته كلمة منها، كان يحس بضياع حاد، يريد أن يغرق نفسه في النسيان.
لا يمكن أن يقاوم، إن مجرد الشعور ببعدها كان يوحي له بآلام لا يمكن أن يحتملها، وكان لا يستطيع أن ينام إلا عندما يكتب لها، كان يبدو بعض الأحيان ضعيفاً، وربما الضعف هذا هو الذي أعطاها فرصة أكبر لكي تبدو ثقيلة، كانت تقول له قد تكون مسرورة ألا تأتي إذا كانت تضايقه، إذا كانت مملة، وهو لا يستطيع أن يسمع هذه الكلمات، كان يؤكد لها العكس، أنها لا تضايقه، وأنها ليست مملة، وعندما كانت تكرر مثل هذه

الكلمات كان يشعر بعذاب ممزق، فهو لا يقوى على سماع مثل هذه الكلمات، صحيح أنه لا يعرف التكلّم مثل الآخرين في كل الموضوعات بسهولة ويسر، وصحيح أنه لا يمكن أن يتحول إلى شيء مضحك، والآخرون يرتمون على ظهورهم من الضحك، ولكنه يحس أنه طبيعي، وأنه بسيط، وأن أي أنثى يحبها سوف يخلص لها، سوف يهبها كل ما يستطيع. ولكن كل كلمة من الآخرين يجب أن تستعمل في مكانها. إن كلمة واحدة كافية لأن يتعذب من أجلها يوم وسنة، وربما إلى الأبد؛ إنه ما زال يتذكر للآن الفتاة التي حدّثها ذات يوم، وقال لها إنها تعجبه، ويسعده لو استطاع أن يتعرف عليها، لقد قالت له أن يكف نظراته عنها، وإنها ليست بحاجة إلى رعونة جديدة من الشباب، يكفيها ما تلاقي، إنه للآن يتذكر كلماتها بحرارة، وعندما يريد أن يتعرف على فتاة، يحس أن تلك الكلمات تطارده، ورغم ما قاله أصدقاؤه الكثيرون، من أن كل الفتيات، يبدين الدلال، في البداية، ولكنهم بعد فترة قصيرة سوف يستسلمن بسهولة، فهو يأبى أن يصدّق؛ إن الكلمات عنده مقدسة، لا يمكن أن تحتمل غير معناها، والفتاة التي يريد أن يكلمها سوف يعبّد طريقها بالزهور، ولكن أية كلمة، ولو على سبيل المزاح، يشعر أنها تجرح كبرياءه، فسوف يترك، سوف يبتعد، لا يتحمل الكذب، صحيح لم يقل لها إنه يحبها، ولكنه للآن لا يدري ما هي مشاعره، إنه لا يكرهها على أية حال، أما اليوم، سوف يذهب، لم يبق غير ثلاث ساعات، سوف يقول

لها، ولكن يجب أن يهيء الجو لذلك الحديث، سوف يحاول أن يكتشف عواطفه الحقيقية، هل هو حقيقة يحبها؟ سوف يقول لها أن تبقى إلى جانبه، يجب أن تختار بحرية، يجب أن تكون جريئة، وهو سوف يمنحها كل ما تريد.

لم يبق غير ثلاث ساعات، سوف أكون هناك، إنني لا أعرفها بالضبط، ولكن رأيتها مرة، يمكن أن أميزها، سوف أحاول، أن أنقل لها كل ما حصل. سوف أقول لها كلماته الصادقة الأخيرة، الأشياء التي أراد أن يقولها لها، إنني أتجنب أن أنقل للآخرين مثل هذه الأمور، ولكن في هذه المرة، لا يمكن أن أقاوم، لا يمكن أن أخون كلماته الأخيرة، سوف أنقله في الطائرة إلى المدينة التي كانت لعنته حتى ساعاته الأخيرة، وسوف أعود لأراها، سوف تأتي، ولكن كيف يمكن أن أقول لها، ما فائدة الكلمات، إن الكلمات عندها يمكن أن تحتمل معنى آخر، الكلمات في هذا الوقت ليست ذات فائدة، قد لا تصدّق، وإذا صدّقت! فالأمر لن يتغير أبداً، لقد انتهى كل شيء، ولكن يجب أن أقول لها، لإنها المرة الوحيدة التي تكلّم فيها، صحيح أن كلماته كانت حزينة، ولكنها كانت صادقة، سوف أقول لها، لا يهمني بعد ذلك ما تقول؛ لقد أصر أن يركب في مقدمة الزورق، وركبت إلى جانبه، كان يجب ألا يركب مع هؤلاء المستهترين، ولكن ما فائدة الكلمات الآن، لقد ركب في مقدمة الزورق، لو أنه ركب في الوسط، لكان الأمر أبسط ولكن ذلك السويدي أصر أن يرتمي في وسط

المركب، وقد ألقى برأسه في حجر صديقته وبدأ يعزف على الغيتار، لو أنه ركب في مكان آخر، لهان الأمر، ولكن ما فائدة الكلمات الآن.

عندما اهتز الزورق اقترحتُ عليه أن ينتقل من مكانه، ولكنه كان في تلك اللحظات يتكلم بمرارة، كان يريد أن يقول كل شيء، لم يعد يسمع، الضحكات التي تنكسر على الأمواج، وتحذيرات الآخرين، ورجائي. لم يعد لذلك مكان أبداً في تلك اللحظة.

أخيراً، عندما اهتزّ المركب وفقد توازنه، كان يمكن أن نسيطر على الوضع، ولكن وقوفهم في المؤخرة لم يترك لنا فرصة أبداً. كان يجب أن يتعلم السباحة، ولكن ما فائدة الكلمات الآن، إنه يخشى الماء، لقد حاصره الموت أكثر من مرة، عندما أراد أن يتعلم، وأخيراً كفّ عن كل محاولة، أن يكون في مقدمة الزورق! كان يجب منعه، إنني الوحيد الذي أعرفه جيداً، الكل يعرفون السباحة، وهو يبدو كالآخرين، وعندما سقط من الزورق، ضحكت الفتاة السويدية، ضحكة كانت متشنجة، ونظرت إلى الماء، لقد خفت تماماً في تلك اللحظة، كان يجب أن أتصرف بشكل آخر، ألقيت بنفسي وراءه، ولكن كل شيء في تلك الأثناء كان بعيد المنال، كنت أفتح عيني، وأحس بأن أجفاني ثقيلة، كنت أنظر حولي، ولكن كنت أرى بقعة سوداء تتحرك بلا اتجاه، كنت أسبح نحوها، ولكن كنت أختنق وعندما أصعد لوجه الماء، أرى الآخرين،

بعضهم ينظر ببلاهة وبعضهم يحاول شيئاً؛ كنت أريد أن أفعل شيئاً، حقيقة، حاولت ذلك، لو أني لم أتأخر لأمكن إنقاذه، لو أني قلت للآخرين لأمكن إنقاذه، ولكن لا أدري ما الذي شدني، إن نظراتي لم تنقذه، وصمتي كان مسؤولاً، ولكن لم أتعمد كل ذلك، كنت أحس أن الآخرين يعرفون وسوف يساعدون على إنقاذه، أما الآن وأنا أتذكر عندما قبضت على شيء طري، كنت أحس بفرحة عميقة، وعندما حاولت سحب هذا الشيء الطري كان قاسياً متيناً وعرفت أن الآخرين قد أنزلوه من الزورق.

لقد انتهى كل شيء، إنه الآن شيء بارد لا يتكلم، بقعة زرقاء تحت عينه اليسرى، وحذاؤه مبتل، إنه صامت لا يقوى على شيء، صحيح أنه في صمته كان يتكلم، أما الآن، فإنه بارد، بارد لا يقوى على شيء.

لماذا أذهب، ما فائدة كلماتي لها، يمكن أن تعرف الخبر من غيري، يمكن أن تقرأه في جريدة، يمكن أن لاتعرفه أبداً، إنني لا أستطيع أن أنقل كلماته، سوف تقول لي إنني كاذب، ولكن عندما تعرف أنه ميت، لن تستطيع أن تقول مثل هذه الكلمات، على أي حال يجب أن تعرف أنه لا يكرهها، ربما يحبها حقيقة وإصرارها دائماً وسؤالها هل يحبها، دفعه إلى الصمت، لم يقل لها إنه يحبها، ولكن هناك أشياء كثيرة يمكن ألا تقال؛ سوف أذهب لأراها، سوف أقول لها كل شيء، إن الكلمة عنده شيء مقدس، لا يمكن أن تحتمل غير معناها،

بالإمكان أن تموت الكلمات، ولكن على شفتيه تبقى حية ندية.

لم أحس أن الساعات الثلاث قد مضت، لقد انهمكت في نقله، كنت أحس بالاختناق عندما وُضِعَ في الطائرة، وركب صديقه الذي كان ينتظره في المدينة، لقد ذهب الآن، وركبت لاشعورياً في الترام الذي يوصل إلى مركز المدينة، وعندما وصلت، كانت عشرون دقيقة قد مضت على الموعد، قلبت الوجوه، لم تكن موجودة. انتظرت، ربما تأخرت، وسوف تأتي، وانتظرت، وعندما دقت ساعة الكنيسة المجاورة العاشرة، عرفت أن لا فائدة من الانتظار، قلبت الوجوه مرة أخرى، كنت أنتظر أن تأتي، ولكن.. عشرون دقيقة تأخير! كان ينتظرها أغلب الأحيان، كانت تأتي متأخرة، كان يتعمد أن يؤخر ساعته، ولكن لا يمكن أن تتأخر ساعة كاملة، ودقت الساعة العاشرة والربع، فأشعلت سيجارة واتجهت إلى شاطئ البحر، وجلست على مقعد حجري هناك، وبدأت أفكر في الموت.. وعنّت على فكري، وتساءلت هل أتت.. ومن البعيد، كنت أسمع أصوات غريبة غير واضحة، ولكن الشيء الذي تصورته في تلك اللحظة صوته وكأنه يقول ربما لم تأت.. أما هو فقد ذهب إلى الأبد.. ذهب ولن يأتي.

* * *

المحتويات

عبد الرحمن منيف
(1933 ـ 2004)

وُلِد في عمان لعائلة من نجد وسط العربية السعودية. درس في عمان، بغداد والقاهرة.

بعد حصوله على الليسانس في الحقوق تابع دراسته العليا في جامعة بلغراد (يوغسلافيا) حيث حاز على درجة الدكتوراه في اقتصاديات النفط «الأسعار والتسويق».

سُحِبت جنسيته السعودية عام 1963.

عمل في مجال النفط في سوريا لعام 1973 حيث انتقل للعمل بالصحافة في بيروت «مجلة البلاغ» ومن ثم غادرها إلى بغداد ليصدر مجلة تعنى باقتصاديات النفط وهي «النفط والتنمية» التي كان لها صدى كبير في تلك الفترة.

انتقل في أواخر 1984 إلى فرنسا متفرغاً لكتابة الرواية بشكل كامل فكانت «مدن الملح» بأجزائها الأولى من أهم نتاجاته، وهي الرواية التي تُرجمت إلى الإنكليزية والألمانية والنروجية والإسبانية والتركية، والتي أكمل بقية أجزائها في دمشق التي استقر بها من أوائل 1987 حيث ساهم في إصدار الكتاب الفصلي «قضايا وشهادات» بالاشتراك مع د. فيصل درّاج والمسرحي السوري المعروف سعد اللّه ونوس.

عاش متنقلاً بين بيروت ودمشق حتى وفاته في 24 كانون الثاني 2004.

حصل منيف على جائزة الرواية العربية في المؤتمر الأوّل للرواية الذي نظّمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، إضافة إلى عدد من الجوائز الأدبية الأخرى. وقد تُرجمت معظم كتبه إلى لغات متعددة (15 لغة).

مؤلفاته

روايات

الأشجار واغتيال مرزوق، دار العودة، بيروت 1973.

قصّة حبّ مجوسيّة، دار العودة، بيروت 1974.

شرق المتوسّط، دار الطليعة، بيروت 1975.

حين تركنا الجسر، دار العودة، بيروت 1976.

النهايات، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.

سباق المسافات الطويلة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979.

عالم بلا خرائط، رواية مشتركة: عبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982.

خماسية مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984 ـ 1989.

الآن... هنا، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت 1991.

سيرة مدينة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1994، وقد صدرت في طبعة خاصة عن المركز الثقافي العربي، وتضمنت رسوماً وتخطيطات لعبد الرحمن منيف، تدور حول «سيرة مدينة».

ثلاثية أرض السواد، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.

أم النذور، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.

أسماء مستعارة (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.
الباب المفتوح (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

دراسات أدبية وسياسية

الكاتب والمنفى، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.
الديمقراطية أولاً، الديمقراطية دائماً، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1995.
بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1999.
رحلة ضوء، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.
ذاكرة للمستقبل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001،
لوعة الغياب، النشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001،
عروة الزمان الباهي، بيسان للنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1997.
العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2003،
مبدأ المشاركة، وتأميم البترول العربي، ، دار العودة، بيروت 1973.
تأميم البترول العربي، بغداد 1976.

دراسات فنية

مروان قصّاب باشي: رحلة الفنّ والحياة، نشر خاص، دمشق 1996.
جبر علوان: موسيقا الألوان، دار المدى، دمشق 2000.



عبد الرحمن منيف

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
آنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي
اشراف فني: حاتم الحاج حسن

البَابُ المفتوح

عندما اجتزت الزقاق بسرعة، واقتربت من بيت جدي... وجدت الباب مفتوحاً... اشتدت دقات قلبي وانتابني شعور أن جدتي تقف عند الباب، وإذا لم تكن هناك فلا بد أنها تنتظر في الغرفة الوسطى... سوف تهجم عليّ، سأشم في صدرها وثيابها رائحة الطفولة والأشجار الخضراء، رائحة الأرض...

اجتزت الباب، درت على الغرف، وجدت غرفة خالي على حالها، بنظافتها وصورها لكن شيئاً واحداً أثارني وخلّف فيّ حزناً لا أعرف له تفسيراً... كان الغبار على الفراش والطاولة...

وقبل أن أنتهي من جولتي جاءت أكثر من جارة من جارات جدتي... ومن خلال العيون التي سبقت الكلمات، أحسست أن كل شيء قد انتهى.

في نهاية الزقاق توقفت ونظرت إلى الخلف... كان الباب لا يزال مفتوحاً، كأنه ينتظر قدوم أحدٍ!

«من المجموعة»

ISBN 9953-68-146-5

9789953681467

المؤسّسة العربية للدراسات

المركز الثقافي العربي